

الحياة الصحراء

DESERT LIFE



المؤلفين

احمد علي حسين | ريان أبو بكر
فرحان سلطان | محمد مصطفى

هذا هو

حياة الصحراء

إن الصورة التقليدية الراسخة في عقل أبناء المدن الحديثة عن «حياة الصحراء»، هي العيش في الخيام والتنقل بالإبل، ضمن حدود غير واضحة، تراعى فقط التحالفات القائمة بين القبائل. وقد ترحل القبيلة، وتترك موقعها مع ماشيتها في مواسم، فتهم في أرجاء الصحراء بحثاً عن العشب والمياه، وعن المكان الأفضل لرعى الأغنام التي يشرب حليبها ويصنع منه الجبن، ومن صوفها ينسج الأبسطة وأقمشة الخيام، فإنها ثروته. وبدلاً من تأثيث منزل دائم ومكتمل بكل اللوازم مثلما في المدن

كُتبت بواسطة

[Islam](#)

[Mohamed](#)

[Nahla](#)

الفهرس

فصل المقدمة (Islam)

الفصول

1- نقد وتقرىظ (Islam)

2- الصحراء، التاريخ الذي اتخذ مظهرًا تاريخيًا (Islam)

3- القناة (Islam)

مقدمة الكتاب

كُتبت بواسطة

[Islam](#)

المقدمة

في الفرار إلى التاريخ خوفاً من هذه الوحدة. وجدت أخي عين القضاة قد نكلوا به وأحرقوه بالشمع في ريعان شبابه. بتهمة الاطلاع والشعور وجموح الفكر. وهو ابن الثالثة والثلاثين! فالشعور بحد ذاته جنحة في عهد الجهل. وسمو الروح وبسالة القلب في جمع الضعفاء والضعفاء. و«كونك جزيرة في أرض العُدران» (أوبا) – على حد تعبير بوذا – ذنب لا يغتفر. كثيراً ما قرأت هذه الكتابة في «شكياته» ووجدت أنها من كتاباتي. فإن القرابة نفسها هي وجة آخر لكل توأمين. وها هي مقدمته على كتابي (الصحراء) وعلي أنا في الصحراء.

كلما واطبث على الكتابة شعرت أن نفسي غير راضية ولست متيقناً من أكثر ما كتبت في هذه الأيام. هل إن كتابته أفضل من عدمها؟

يا صاحبي. ليس كل ما هو صحيح وصواب ينبغي أن يقال. ويجب ألا أرمي نفسي في بحر لا يرى ساحله وألا أكتب أموراً بلا «وعي». فأندم إذ أعى عليها وأتألم منها.

يا صاحبي. إنني أخاف - حيث الخوف - من غدر القدر..

حقاً. وأقسم بحرمة الصداقة. إنني لا أعلم هل ما أكتبه هو طريق «السعادة» الذي أسلكه. أم إنه طريق «الشقاء»؟ ولا أعلم حقاً. عما أكتبه أهو «الطاعة» أم «المعصية»؟ ليتني أصبحت جاهلاً كي أتخلص من نفسي.

عندما أكتب شيئاً في الحركة والسكون أصبح في منتهى الألم!

وعندما أكتب شيئاً في التعامل مع طريق الله. أتألم أيضاً!

عندما أكتب عن أحوال العشاق لا أراه أمراً لائقاً!

وعندما أكتب عن أحوال العقال. هو الآخر لا أجده لائقاً!

وكل ما أكتبه لا يليق أيضاً!

وإذ لا أكتب شيئاً لا يليق أيضاً!

وإذ أقول فلا يليق!

وإن أسكت لا يليق أيضاً!

ولو أردت هذا القول فلا يليق وإن لم أردده لا يليق أيضاً!

ولو أسكت لا يليق أيضاً!

"(رسالة العشق)."

حديث آخر بدلا عن «مقدمة» الطبعة الجديدة

«وجودي» هو «حرف» واحد فقط و«استمراري» في الحياة هو «قول» ذلك الحرف الواحد فقط" لكن على ثلاثة أطوار: التكلم والتعليم والكتابة. إن ما يعجب الناس فقط هو التكلم. وما يعجبني ويعجب الناس معاً هو التعليم. وما يعجبني ويشعرنى بأني لا أفعله فحسب. بل أعيشه هي الكتابة!

وكتاباتي أيضاً على ثلاثة أطوار: «الاجتماعيات»، و«الإسلاميات» و«الصحراويات». إن ما يعجب الناس فقط هي الاجتماعيات. وما يعجبني ويعجب الناس معاً هي الإسلاميات. وما يعجبني ويشعرنى بأني لا أفعله فحسب. ماذا أقول؟ ولا أمارس الكتابة فقط بل أعيشه هي: الصحراويات.

ومن هنا يأتي ترددي الدائم في نشرها. فقد سميث هذه الصفحات الثلاثمئة بالعمى. فيه ما يقارب عشرة آلاف صفحة من هذه الكلمات التي هي «بضعة من كيانى». فليس الكتابة هنا عملية ولا عقلية. بل هي عصاره وجودي التي أنتجت تحت معصرة الدهر. هذه المعصرة القاسية التي تدور وتدور وتدور معصبة العينيين على فكري وأحاسيسي وأعصابي. وفي آخر الليل تصل إلى المكان نفسه الذي بدأت منه بالدوران. وجلي أن في هذه «الدائرة المفرغة» لا غاية لهذه المعصرة. ولم توصل حجرتها إلى مكان. وإن كان ثمة غاية فهي استخراج الزيت من أبداننا وإن كان ثمة نهاية فهي النفاية المتبقية من عندنا! تحت سنابك الليل والنهار التي تمر علينا ك«الوسواس الخناس». ألم يكن صب كل هذا «الألم» و«النفي» و«العبث» على روح هذا الجيل المليء بالحيوية والأمل والإيمان والذي قد نهض ل«يذهب» ول «يصل» ول «يصنع». ألم يكن تسميماً وإعلالاً.

إجابة سريعة قاطعة - سواء بالنفي أم بالإيجاب - عن هذا السؤال. ليست أمراً بعيداً عن السذاجة والتعجّل. ف«الأثر الأدبي» مهما كان كاملاً فهو ناقص؛ لأنه حسب قول سانت بوف: «قطعة معدن تكسب شكلها تحت مطرقة قلم كاتبها وسندان فهم قارئها». إذن. فلجواب عن هذا السؤال. ينبغي النظر إلى خالقي هذا «الأثر» كليهما. الحكم على هذا الكتاب. كان أكثر ته تضاداً وحتى تناقضاً من كل الأحكام التي صدرت بحق كتاباتي وأقوالي. لكنّ ثمة ناقد خبيراً باسم الأستاذ الدكتور بديع. وهو عالم إيراني يقيم في فرنسا نشر مقالاً في أسبوعية «Le Carrefour». إذ درس فيه شخصيتي النفسية والفكرية والاجتماعية أكثر من كتابي. لقد سمى هذا الكتاب ب«المعجزة السوداء». المعجزة إشارة ل«القلم» و«السوداء» إشارة ل«الأثر» الذي يتركه الكتاب في «المشاعر». إنني لا أنفي قاطعاً هذا «التأثير الأسود». فأحدى المسلمات هي أن «الصحراء» تنافي الحياة. الصحراء ضرب من «الملل» لمن تعلق قلبه ببيئة حياته. إنها صدمة للسعادة واللذة والسكينة وفقدان «التفاؤل»: تفؤل شخص مسترخ تحت ظلال شجرة. معمرأ دياره. مسمناً كرشه من السعادة. تعجبه نفسه ويشكر رته لكل هذه النعم.

لكن المسؤول " أي مسؤول البناء. ألا يجب أن يتعلم التهديم؟ إن السبب الذي قد يفرض على القارئ البقاء في «الصحراء» التي هي بحد ذاتها كارثة تجعلني متردداً يمكن أن يفرض عليه أيضاً أن «يغتسل» في «الصحراء» ليمضي إلى «الشهادة». فحسب قول شاندل «من يستطيع أن يموت من أجل العشق. فقد ماتت الحياة مسبقاً أمام عينيه».

الألم والنفي والعبث» الحواسم القاطعة التي تأخذ طريق «الدنيا وتُمهده» نحو «الأخرة». إذ الاهتمام بلقمة عيش الآخرين والاجتهاد لكسبها. يتطلب في أول خطوة قتل قلق لقمة العيش في النفس وتركها.

الصحراء. في نظر تلك العصابة من «أبناء آدم» الذين يعدون «الهبوط» مصيبة صبت عليهم. هي مصير الإحباط والخيبة والمرارة وعطش آدم المؤبد حيث اقتربه من «الشجرة الممنوعة». على وفق ذلك. فإنه «معجزة سوداء». أما لدى تلك العصابة من أبناء آدم الذين يتقبلون سيرة آدم ويتابعونها. فإن الهبوط. (جنة الشيع والارتواء واللاألم هذه) والولوج في هذه «الصحراء». حيث القلق والعطش ونار قلق انتظار مجيء آدم. كل هذا في نظرهم هو أمنية جعلتهم يفقدون صبرهم للاقتراب من «الشجرة الممنوعة» هذه؛ ليمسوا جزءاً من حكاية الشيطان وحواء؛ فتح العين على الذات والتمرد ومن ثم الإبعاد عن الجنة والغربة فالتيه في «الصحراء».

اسمح لخداع العشق أن يفتح عينيك على تعزّيه. حتى وإن كانت النتيجة هي الألم والقلق لا غير. ولكن إياك أن تتحمل
العمى من أجل السكينة والارتياح.
وإياك والإثم!
أجل. ولكن لو لم يكن الإثم. فكيف يمكنك الحصول على الطاعة؟ إذ إن «الإنسان هو الملاك الوحيد الذي تلتطخت يده
بالدماء!»
الصحراء ليست منزلي ومنزلنا حسب بل إنها منزل «شعبنا» و«روحنا» و«فكرنا» و«مذهبنا» و«أدبنا» و«حياتنا»
و«فطرتنا» و«سيرتنا» جميعاً.
الصحراء! «هذا التاريخ الذي اتخذ مظهرها جغرافياً!».

فصل 1

نقد وتقرير

كُتبت بواسطة

[Islam](#)

نقد وتقرير

هذه شقشقة هدرت...

نقد وتقرير

سيقول الأدباء:

«بعد تصفح مُجمل. وُجدت بعض العبارات الضعيفة وحتى أخطاء نحوية فادحة. في بعض المواطن يأتي المبتدأ في الجملة ثم يقف الكاتب على إحدى متعلقات الجملة كالمفعول أو القيود أو الظروف الزمانية والمكانية تاركاً المسار الطبيعي للجملة ومقصد العبارة. منتقلاً إلى موضوع آخر. وقد بقي خبر الجملة معلقاً تماماً. ومضمون العبارة مبهماً. لقد وردت بعض التعبيرات والمصطلحات في سياق غريب بحيث لم يستعملها أي من كبار الأدب. سواء المتقدمين منهم أم المتأخرين. أو إنها قد اقتبست من محاوره يومية أو إنها عبارة خاطئة أساساً مثل عبارة: (كانت عيناه كيني الباجه!). ويظهر أن الكاتب لم يكن يعلم بأن الرأس هو وحده من له عينان وأن الأرجل «باجه» لا يمكن أن يكون لها عينان! يجب أن نسأل الكاتب الفاضل المحترم ليدلنا على الدابة التي في أرجلها عيون! من هذه الهفوات. فمثلاً بدلاً من استعمال عبارة واضحة صريحة في باب غروب الشم كعبارة «غابت الشمس» يأتي بهذه الجملة: «وقد أسدل الأفق رموشه الدامية!» لما يكون للأفق. في نظره رموش. خاصة رموش دامية؛ فلا يستبعد منه أن يسند العين إلى أرجل الغنم...!»

سيقول الكاتب:

«لقد تنتقل كثيراً من موضوع إلى آخر. يصعب فهم الربط بين العبارات والموضوعات. إنه يستعجل كثيراً ليأتي بكل ما لديه من كلام. وفي بعض الأحيان يأتي بأوصاف وتأويلات طويلة لبيان كلمة واحدة أو تعبير واحد. تارة يُعيد ويكرر الموضوع. وتارة أخرى يطنب ويصبح مملاً. وتارة يوجز ويُخل في الموضوع. في كتاباته لا يمكن معرفة الأصول الأساسية الثلاثة التي يجب أن يقوم عليها أي نص. أي (المقدمة) و(الموضوع) و(النتيجة). ولا نرى أسلوباً متسقاً مستقيماً. تارة تكون الجمل قصيرة جداً (كلمة واحدة!) وتارة أخرى تأتي الجمل طويلة جداً وتستغرق صفحة كاملة. تارة يأتي بأسلوب أدبي فاخر. وتارة أخرى يكون أسلوبه عاماً مبتذلاً... هذا التناوب بين السمو والحضيض يأتي فجأة في داخل النص؛ بصورة عامة فإن الكاتب لم يختار بعد أسلوباً خاضاً في الكتابة ولم يقيد نفسه بضوابط أية مدرسة أدبية جديدة ولا بالأساليب الأدبية القديمة. ولذلك نجد منطقياً استدلالياً تارة ورومانسياً شعرياً تارة أخرى. تارة يظهر منفتحاً. وتارة أخرى مثالياً وحتى يوتوبياً. تارة نراه وصفيّاً وتارة أخرى نجده تحليلياً. تارة فلسفياً وتارة صوفياً وحتى سياسياً ملتزماً. تارة يظهر منعزلاً يائساً. وتارة متقيداً بأصالة الشكل (forme). وتارة أخرى رافضاً الشكلانية وغارقاً في المضمون ومتعصباً لأصالة المعنى والمضمون (fond). تارة نراه عينيّاً وتارة ذهنيّاً. تارة يبدو رمزيّاً وتارة كلاسيكياً وتارة رومانسياً... بصورة عامة فإنه كاتب من كل صنف وفي الوقت نفسه ليس من أي صنف. لذلك فإن هذا النص ليس بكتاب ولا مقالة ولا ملحمة. ولا رواية ولا شعر ولا قطعة أدبية. ليس أي شيء...!»

سيقول علماء الاجتماع:

أولاً لم يبين الكاتب «طبقتة الاجتماعية». ولا يملك وعياً تطبيقياً واضحاً. ثانياً فن هذا الكتاب يثبت مرة أخرى بأن المجتمع كلما واجه ركوداً جزء الظروف الداخلية أو الأحداث الخارجية أو حادثة فجائية يجثو ويخضع فجأة بضربة قاضية أو يصطدم فجأة في أثناء «مُضيه» ب«الجدار» أو ب«طريق مغلق». فيتوقف عن الحركة مجبراً ويظهر المستقبل أمامه مظلماً نحساً مريباً محالاً. ويفقد شجاعته وإرادته وقدرة حركته وأمله وروحته البناءة الإيجابية. ويمسي مُقعداً كروح عجوز منكسر ضعيف جليس الدار؛ يروج في مثل هذا المجتمع مرض التصوف بمختلف أصنافه: التصوف المذهبي أو الأخلاقي أو الروحي أو الفلسفي أو الاجتماعي. (فكل من هذه الأصناف تتفرع إلى أشكال أخرى). وتنمو فيه بصورة بينة النزعات الانطوائية المتطرفة والانعزالات المنحرفة واليأس ونسج الخيال والأيدولوجيات السود والميل للقضايا الأخرى. والذهنيات التجريدية والأحزان والأفراح والميول والانفعالات غير الطبيعية. والأفكار غير الواقعية والانسلاخ عن العينيات الخارجية والابتعاد عن المسائل الحسية والآلام والاحتياجات والظواهر الملموسة. وبصورة عامة يصبح عالماً خيالياً وحياة أحلام ملأى بالميول الذهنية والأحاسيس المجردة. كما كانت السوفسطائية والتفلسف المتطرف والرقصات السادية خلال حقبة الانحطاط والضعف في اليونان القديمة. وكالرهبانية والكلام السكولائي التجريدي الذي كان أشبه بالألاعيب السوفسطائية والذهنية والذي انتشر خلال القرون الوسطى الأوروبية. وكالطاوية خلال حقبة ركود الصين والتصوف في الهند الراكدة والعرفان والانعزال في الغزليات العرفانية في الأدب العراقي والهندي في الإسلام خلال عصر الانحطاط. أي عصر الأتراك وضعف العصر العباسي وتجزئة الأمة والتحجر الثقافي وزوال روح حركة الإيمان الإسلامي وتوقفها في إيران بعد غزو جنكيزخان وتيمور وهولاكو. أو كالوجودية المنحرفة والأعيب الكدية والتشرد الكلوشاري، والعدمية والدادائية والعبثية والفلسفات «الإلحادية» و«الفرغ في الفراغ» و«اللاشيء» في العقيدة الأوروبية خلال مدة ما بين الحربين العالميتين. وفي أيديولوجيتها وأخلاقيتها وحياتها وفنونها. وحى في علومها وفي سائر اتجاهاتها غير الطبيعية والسقيمة. أو في أفضل الأحوال في أفكارها التشاؤمية وميولها للانعزال عن المجتمع والمثاليات المتطرفة والذهنيات المجردة البعيدة عن الواقع والعصيان. وأفكارها غير المعقولة وأحاسيسها الغربية. وحتى في مدة ما بعد الحرب العالمية الثانية. عندما وصلت الحضارة الجديدة إلى طريق مغلق " وأمسى العلم أسيراً في أغلال الماكنة. وصارت الفلسفة أعجز من أي وقت وأكثر ذعراً من أي زمن. وقد نسي حتى الدين وأصبح عديم الفائدة. فقد أثبت علم الاجتماع بأن فكرة المدينة الفاضلة والرغبة في تأسيسها تقوى غالباً في عصور انحطاط المجتمع وضعفه. وإن هذا الكتاب يبين كيف أن سقما اجتماعياً يمكن أن يولد في هذا العصر الذي هو عصر انتكاسة هذا الجيل - نوعاً من «البوذية» الشرقية أو «الألاعيب البكتية» الغربية. وماهية أفكار ومعاناة هذا الجيل المنكسر وكيفية لجوء روحه كالطير من البرد القارص في الخارج إلى الدفء الموجود في داخل الجناحين. غارقة مع نفسها ومع أفكار الوحدة في هذه العزلة المؤلمة. مشغولة بصنع ال«يوتوبيا» أو منتظرة مجيء «غودو»...؟

سيقول المستنبرون الجُد المتنامون المنتمون للعالم الثالث الذين غالباً ما يشعرون وهم جالسون في مقاهي طهران بأنهم من المثقفين الملتزمين المواكبين لأحداث العصر سيقول أمثال هؤلاء:

«في هذا الكتاب لسنا بإزاء «قلم ملتزم». فهذه الكتابات لا تمت بأية صلة إلى الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الراهنة في مجتمعنا وفي كل الدول النامية. نحن هنا بإزاء نظرة فلسفية مجردة وذهنية مطلقة وروح متشائمة وأيدولوجية مبهمة خيالية إشراقية. وهموم ومثاليات كافكاوية وكاموية وأكثر من ذلك. هايدغرية وبوذية ولاوتزوية!». وضرب من انطواء شديد على الذات» وعزلة وهروب متطرف من الناس والآلام! واضطرابات «وجودية» وخوف من «وحدة فلسفية» تراقفها تجارب اجتماعية شاقة. وأخيراً نحن مع «إنسان هارب من نفسه ومشرّد في داخل نفسه».

من خلال قراءة مُجملة لهذا النص يتضح تماماً بأن هذه الأفكار والمشاعر والهموم والانفعالات. كلها نتيجة للحالة الروحية الخاصة والأهواء الشخصية للكاتب نفسه ورغبته في العزلة والانعزال عن المجتمع وممارسة «فن العيش في الداخل والانطواء على الذات»! ويتضح من كل ذلك بأن الوحدة والعزلة الفكرية والروحية قد تولد مشاعر وقيماً خاصة وتؤثر في تفكير الفرد ومشاعره؛ مما يؤدي إلى ابتعاده عن الواقع والعيونيات والدنيا الخارجية التي هي دنيا الجميع - ليصبح غريباً فيها. إن الإدراك والإحساس بالواقع العيني الخارجي يولد «تفاهماً فكرياً وتشابهاً عاطفياً» بين كل الأفراد وفي مختلف الأزمنة والأمكنة. ولكن من يعيش في «الوحدة» ويشعر بالحياة «لوحده» ويرى كل شيء «وحدّه». ويرى الأمور من وجهة خاصة وبنظرة خاصة. يرى ويدرك كل شيء بطريقة مجهولة مبهمة موهومة لدى الآخرين. ومن ثم تصبح «لغته» غير مفهومة لدى الآخرين وكلامه «غير منسّق»؛ ومن هنا تأتي البعثة التي سببتها الروح الأصلية لهذه الكتابات.

سيقول علماء النفس:

«نعم، إنه أمر واضح. لقد كشفت نظريات التحليل النفسي الأسرار المخفية في الأعماق المظلمة المعقدة لروح الإنسان. بمجرد أن عرفنا «العقدة» أو «الرغبات المكبوتة» يمكن تحليل وتفسير كل الحالات والصفات والأبعاد وتظهرت روح الإنسان المختلفة الملائى بالأسرار وجذور كل الأفكار الفلسفية ومعانيها واتجاهاتها؛ وكذلك جذور العقائد والعواطف البشرية. يمكن معرفة هذا «بنظرة واحدة» وحتى من دون هذه النظرة بل ب«خبر واحد» يمكن تفكيك تلك الجذور وتجزئتها وتحليلها غيابياً. توضح هذه الكتابات أن للكاتب عقدا نفسية ورغبات مكبوتة قد تجلت في هذه المشاعر الجياشة الصوفية والأفكار الرمزية الفلسفية التي هي كلها تجليات لروحه. إن الكاتب. كما يقول هوء ولد في أرض جرداء كصحراء الملح، وينتمي من جهة أمه إلى طبقة ملاك الأراضي الريفيين. وينتمي من جهة أبيه إلى أسرة دينية ومن طبقة رجال الدين. إن كلاً من هاتين الطبقتين الاجتماعيتين في هذا العصر الجديد قد آلت للزوال والاضمحلال. إذن فإن البيئة الطبقيّة لأسرته التي كانت تتمتع بمكانة اجتماعية مرموقة مادياً ومعنوياً. وكانت تعيش حياة مرفهة. قد انكسرت الآن وجئت على ركبتها وإن هذا السقوط والاضمحلال قد ولد في روحه عقدة نفسية أخرى. بعد ذلك. هاجر الكاتب من صحراء إيران إلى باريس وهناك سَعَرَ بالفجوة بين هذين العالمين - أي عالمه وعالم الآخرين من أمثاله- وبهذا ولدت عنده عقدة ثالثة. ثم أنهى دراسته العليا في جامعة السوربون وعاد إلى إيران حائزاً شهادات عليا وعلمية ممتازة. وبعد أحداث أرهقت الروح والجسد وتركت في روحه كومة من العقد. عين «مُدسأ في ثانوية» كشاورزي في (قرية طرق في ضواحي مدينة مشهد) ليدرس الإملاء والإنشاء. ومن هنا تولدت عنده العقدة الرابعة أو الأربعون... وفي أثناء علاقاته الاجتماعية التقى عدداً من هؤلاء السايكولوجيين الحكوميين المنتمين لمدارس التحليل النفسي الفرويدية الوطنية من أمثالنا. ومن ثم انعقدت في حلقومه كل العقد النفسية في العالم. عقدة الحقد على كل هذه الوقاحة. وعقدة البكاء من كل هذه التعاسة... وخلاصة القول إن هذه الكتابات تبين العُقَد والرغبات المكبوتة النفسية في داخل الكاتب المغلق.

ولكن... أنا ماذا عساني أن أقول؟ ليس لدي أي أقوال بجزء كل هذا النقد الاجتماعي والأدبي وغيره! ولا أحتاج إلى أن أبرئ نفسي أيضاً. فحتى لو شعرت بهذا الاحتياج سأنتقل عن تلبيته. إنني لا أهتم بنفسى كثيراً ولا أبالي بنقادي. لذلك لم أرغب في حمل عبء «الدفاع عن نفسي» ضد حملاتهم. إن ما يمر علينا وما ابتلينا به هو أكثر جدية وحيرة مما نتوقع. فلا يمكننا أن نكون «مرتاحي البال» كي نهتم بالحكم على هذا وذاك؛ أو أن نعيش «معدّمي الأمل» لنجزع من ركلة ناقد ما ومن رفته. فعلى أية حال. للكل أن يتحدث ما يشاء. فإذا أخطأ لا نلومه. وإذا قال الحقيقة لا نجادل الحق. " وإذا صادفني متع لحوخ وأخذني من تلابيبي ومن وريدي. سأظهر بتصديقه وتأييد كلامه وأسكته. لأن هذا الغمر لا يكفي كي نكمل حديثنا. فإنني أخشى من أن أهدر كلمة أو لحظة في الزد على سفيه هامز لامتز. فإنه من فرط الشعور بالنقص والفقر للكلمات التي يرغب في قولها. كلما يصادف شخصا يظنه متكاملاً شهيراً وذا رصيد معرفي. يعضّه ويرفسه ويدميه بمخالبه وينقره بمنقاره. وبعبارة أخرى يمارس نقداً أدبياً علمياً واجتماعياً ونفسياً.

ليس «بت الشكوى» هذا. بكتاب ولا مقالات. إن أصدق الرسائل هي تلك الرسائل التي نكتبها من دون أن عنوانها لأي أحد. ففيها «حديث مفعم بالحقيقة. ولا توجد أية مصلحة توجب البوح بهذا الحديث». وهذا هو الكلام الذي عبر عنه شاندل بأنه ليس للقول. فحسب تعبيره: «إنه ذلك النوع من الكلام الذي يوجد لدى كل فرد ولكنه ليس للقول». الكلام. شعرا كان أم نثر ووحياً كان أم عقلاً. مقيد بشرطين: «الشرط الخارجي والشرط القبلي». الأول هو «العنوان» والآخر هو «المخاطب». «العنوان» يحدد الكلام ويأسره. والمخاطب يضيف صبغته عليه؛ فلو شئنا استعمال مصطلح هيغل في الفلسفة أو مصطلح سارتر في الأدب " فإن الكلام يختزل دوماً في العنوان والمخاطب أو الاستنتاج والإخبار؛ ويتجاوز حدوده ويجد «نفسه» في «المخاطب» ويوزط حرياته وإمكاناته ب«القيود» و«الأغراض» التي يفرضها عليه العنوان. إن الكلام في هذا الكتاب. الذي «تتاجي فيه روح وحيدة نفسها في غربة هذه الصحراء»؛ متحرر من هذين القيدين المتلازمين. وإنه غير مسؤول عن بيان وإثبات وتعليم وتبليغ «موضوعات» قد تم بيانها سابقاً. وغير محدود بمستوى إدراك وذوق مخاطبين قد تم اختيارهم مسبقاً ولا باستحسانهم وإنه ليس مكان لانفعالات أمثال هؤلاء.

على مز الغمر والزمان. وفي أثناء المرور بمنازل الحياة. «غرص» أمامنا «وجود العالم» أو «وجودنا» بكل ما فيه من ألوان وأشكال وأحداث" وإن تعاملنا مع «الحياة» و«الآخرين» و«الزمان» و«الوجود» وكذلك شعورنا ب«الماضي» المائل أمامنا والذي «امتزج فينا» و«اصطدم بنا». والحالات المدهشة الغربية التي نراها فجأة واللحظات المأنوسة النقية التي نصادفها مع أنفسنا في معترك الآخرين ومعترك الأمور الأخرى. ويراهنا بعضنا في بعض ونتعرف عليها ويتحدث بعضنا مع بعض عن

عشنا وخلقتنا وحالاتنا ومشقاتنا وأمانينا. كل ذلك يرسم على ستائر قلوبنا ألواناً وصوراً ويخلق انفعالات في أرواحنا قد تخرجنا للحظات عن المسار الذي نعدو فيه مع الآخرين «مثل فيل عظيم يهوى العزلة وينفصل عن قطيعه ويبحث عن زاوية هادئة في الغابة» "لابئين في خلوة عزلتنا جالسين تحت وابل من الأفكار والآلام والحيرة. صامتين عند رعد السحب الهائجة الجامحة التي تبيكي ألماً واشتياقاً؛ في مثل هذه الحال! حيث استأنست وهدأت وائتلفت شظايا وجودنا كله وهيام حياتنا كلها في «عودة عارية حُرّة صادقة إلى الذات». عند ذلك نفكر في داخل ذواتنا ونشعر و«نتكلم».

ليس التكلم عند هذه الحال مثل استعمال الكلمات والتعبيرات من أجل «إفهام موضوع معين» «لفئة معينة». التكلم هناك هو جزء من الفهم والإحساس " ومن ثم يصبح الكلام مشابهاً «للمناجاة مع النفس».

عند مثل هذه الحالات. إذ المعاني سبي الأفكار وتحرق الإحساس. في مثل هذه اللحظات. إذ دوامة الحياة تسحق لحظاتنا منهكين متألمين من ملل الحياة ومن مشقة عبث «الوجود». نمسي مخاطبين أنفسنا أو نخاطب خليلاً كأنفسنا ونشرع بالكلام. ليس «كلاماً» عن شخص أو أشخاص أو موضوع أو موضوعات محددة. بل تكلم حر. شبيه «بالتفكير مع النفس الحرة المنطلقة».

شبيه ببث الهموم لشريك حزن أنيس مخزن للأسرار. وكذلك نبدأ بتبادل أطراف الحديث. ولكن ليس حديثاً عن ألم معين في الحياة. أو مشكلة معينة في العمل أو أمل خاص نحو المستقبل. بل حديث عن مشقة الحياة والنفس والآمال والمخاوف والأحلام الجامحة الشاسعة. إن موضوع الحديث هو ما يطرح في هذه اللحظات وعند مثل هذه الحالات وليس نحن من يطرحه. الأصالة هنا هي «للتكلم». والحديث ليس وسيلة للإثبات والإخبار؛ إنه بحد ذاته ضرب من «العيش». لا حاجة إلى الاستشهاد بأقوال سارتر. قلوب أناس الصحراء البسيطة المتألّمة الذين يشعرون بالتيه في أعماق أنفسهم التلكي الظائمة. خوفاً من خلوة الصحراء الخالية ومن صمتها الأبدي - تشعر بما يسميه سارتر «حديث الشعر» الذي اكتشفه بنبوغ فلسفي وبفن المنطق القدير. إن قلوبهم وجدت ذلك من خلال «قوة الألم» و«إعجاز القلب» و«هداية العوز». وإن

المكّل التالي يبين بأنهم يعرفون معنى الكلام الذي ليس وسيلة للإخبار ومعنى الكلمات التي ليست علامات دالة. يعرفون ذلك بالحس. كما يبين هذا المثل أنهم يتكلمون في تلك اللحظات الخاصة من العمر وعند تلك الحالات الروحية غير الاعتيادية. إذ تكون الأصالة للكلام نفسه. ويتحول إلى إحساس بالألم وشوق وإلى فكر وعاطفة. يقول هذا المثل الذي يبين كل ذلك: «إن اجترار المرء هو كلام!»

إن ما يجعل القضايا تتوالى في سياق واحد. عند التحدث بهذا الأسلوب. ليس مبدأ «العلية» بل مبدأ «التداعي». وذلك على خلاف الكلام الإخباري الذي يستعمل أداة فقط. إن المعاني في هذا السياق لا تتوالى كمقدمات قياسية منطقية لتصل إلى «النتيجة الأخس». فللمعاني هنا طبيعة بعيدة عن أي شائبة أو رياء. وهي تدعو بعضها بعضاً للحضور في سياق الكلام. ولا يتطلب حضورها قصداً من المتكلم أو اقتضاء من المستمع. وإن ما يضيف على اللغة الشكل والموسيقى هي الحالات العاطفية ونسق المشاعر. وليس القواعد اللغوية والأصول الكتابية. إن المعاني العقلية والحوافز الملهمة والسمات الخيالية والشعرية والنثرية والاستدلالية والوصفية التي يراد من ورائها بناء نص على وفق منهج مُسبق وعلى وفق أسلوب وقالب معين. لا يدونها الكاتب. بل إنها تأتي عفوية حرة وتأخذ مكانها الفطري؛ كل ذلك على وفق ما يقتضيه جوهر المعنى وموسيقى الإحساس وليس ما يوجبه الفنن والاستنتاج والتعليم والإعلان.

إنني، هنا، لم أمارس تمريناً لخلق أسلوب جديد في الكتابة. ولكنني عندما كنت غارقاً في الخيال والأفكار. وفي أثناء خلوتي بنفسي أكتب من دون أن أشعر بنفسي. كل ما كان يمر على خيالي في تلك اللحظات " وكل ما كان يلج في قلبي قد انطبع على هذه الصفحات من دون أي نقص. وبكل ما فيه من تجرد وعشوائية وصدق وخلوص مطلق. وبخلو تام من الشوائب والقيود. إذ تجلت على هذه الصفحات كل المعاني والعواطف التي رسمها على ضميري بنان الخيال والذكريات بقوة الإدراك والإحساس.

ما يسمّى في ثقافتنا ب «بت الشكوى» و«نفثة المصدور»- التي هي عبارة عن مجموعة آلام لأرواح قلقة ولصدور مرهقة لضحايا الجهل وعنف الأيام- هي قريبة من هذه اللغة؛ في مجال الشعر فإن «الغزل» هو تجل لاشتياق وأحزان واضطرابات شاعر قد «تأصل» حديثه. وكلماته ليست أدوات للإخبار وعلامات للهدى. بل إنها زهور ونباتات قد أينعت في ليال شتوية من حياته ومن جوف تربة ضميره الخصب؛ ملبية نداء شهر آذار وعبق الربيع ودفء الشمس. وإن نقد أهل القواعد يتلخص في أن «غزله يفقد للوحدة الموضوعية وأنه في كل بيت يتحدث عن موضوع معين وليس في بيانه موضوع واحد واضح المعالم». من هنا يمكن القول بأن الغزل هو بيان عال بالذات وليس ألياً بالاعتبار؛ وإن المعاني فيه لا تتماسك بسلسلة مبدأ العلية المنطقية ولا تتوالى ولا تنتظم في شكل مقدمات بوساطة إرادة المؤلف بغية إيصال نتيجة للمخاطب. بل إن «الأقوال» تدعو بعضها بعضاً لوجودها في سياق مشترك في الآلام. فإن التناقضات والتشابهاً والتجاورات تتماسك فيما بينها وفي أثناء هذه التداعيات

الفطرية الحرة يجتمع بعضها مع بعض في خلوة الضمير؛ شاء المرء أم أبى» وعلم أم لم يعلم.

ما يرد هنا من أقوال هو جزء من آلاف الصفحات من «بث شكياتي» وغزلياتي غير المنظومة التي كتبت في حالات و«آنات» غيبية ملأى بالأسرار وعلى مر العمر. إذ كان شكل شعاراتها ومضمونها تتهاوى بجذبة موقف معين وتهرب من كل ما «يفرض عليها» دوماً. وتنصهر صامتة صابرة في «داخل نفسها. بعيدة عما سواها» في سعي ذلك «المعنى» الذي ابتليت به. وإذا رأيت معي واحداً من على خاطري وسخري وهام بي وجعلني آتي بمعان معقدة مترامية الأطراف. فلأن كل عاطفة قد تنمو في داخل نفس المرء وتينع وتعم في كل وجوده وتهيم وتهيج الألام والذكريات والعوز والأمانى الميتة المجهولة المنسية وتنفخ فيها من روحها وترعاها وتوقع قيامة مبهرة في مقبرة النفس الساكنة. وهؤلاء الذين أرادوا وصف هذا البعث والنشور للآخرين من خلال «النظم» أو «النثر» قد شوهاوا هذا الوصف. لكنني لم أمارس مطلقاً مثل هذا الجهد العاثر ولم أكتبه ولم أحكيه. فخلال تلك اللحظات السحرية الغريبة التي قضيتها في هذا الابتعاث. ما كنت أراه وما كنت «أجده» - برغم وجودي الغافل - قد كان يتبل إلى «حرف وفعل وصوت» ويصبح كلاماً؛ وفي هذه الأثناء وعند هذه الحالات. كنت أشعر بأنني لم أستعمل الكتابة وسيلة للبيان ونقل الأفكار والعواطف. ولم أكتب لكي «يبقى النص» أو «لأمارس الكتابة» أو «ليعلموا». نعم. لقد كنت أكتب لسبب واحد وهو أنني «لم أستطع ألا أكتب»! وعند هذه الحالات «اللانفسية» تكون كل كلمة. حاوية لانفجار مهيب " إذ إنها تهيم وتسيب الروح في مضيق العيش والوجود الخانق. وتكون الألام والأقوال هائجة مرعوبة من الموت بسكون. وتأتي الألفاظ بنفسها وتجتاحني لكي يتم «قولها». وأنا المرهق المتألم الأرق كنت كحارس سجن قد ثار عليه سجنائه. وكنت أشعر بعمق هذه الشهادة الصادقة وبروحها التي أدلى بها «توماس ولف». لقد شعرت بها حقاً وبكل كياني. حين قال: «الكتابة هي للنسيان وليس للتذكر!»

إن الاغتراب هي الصفة البارزة «للوضع الإنساني» «situation humaine». الجوهر الإلهي «لمعرفة النفس والحرية والخلق» الذي يسمو بالنوع «البشري» إلى مراحل «الإنسانية» المتكاملة - يسوغ غربته في هذه الطبيعة الملأى بالعناصر ويسوغ وجوده في هذا الانتظام الأعمى وبين هذه الكائنات الغفل عديمة الإحساس التي تحيط به. وإن الدين والعشق والفن هي التجليات الثلاثة لهذه «الروح الغريبة». هذا الناي المنقطع عن بيئته. الذي يئن دوماً من ألم الفراق والاضطراب والحسرة والانتظار والعشق والنفور. والذي كلما يدرك نفسه أكثر يمسي وحيداً أكثر فأكثر وتنقطع علاقاته اللاشعورية مع الطبيعة وينسلخ عن ال «نحن» أو الروح الجماعية التي كانت قوية وسلطوية في المجتمعات القديمة؛ ويصل إلى ال «الأنا»؛ ثم يمضي منقطعاً عن العالم ومنفصلاً عن الجمع ليهيم في ألم «الاختيار» وخوف «الخلاص» ويضطرب منهما ويسعى من خلال التحدير والشكر كي يتخلص من الخلاص ويحصل على ونام قلب ماء أو يسعى بواسطة إعجاز الفن ليعرف الطبيعة على نفسه ويجعلها شريكة ألمه. وليخلق تفاهماً وتقارباً مع ذاته والآخرين. وليستعيد العلاقات التي فصلها بوعي عقلي وذلك ببيان وإبداع فني. أو ليخرج من مضيق الغربة الخاوي من الألم ويلجأ إلى الداخل ويركب على جناحي روحه التواقفة ليهرب بقوة العشق وبهداية العرفان إلى ذلك «المكان المجهول» المألوف الذي ليس هذا المكان. أو ليُنجى نفسه بدعوة رسالة غيبية وبهداية رسول قد جاء بأبناء من هناك؛ ولكن إذا لم يصدق أبناء الغيب ولا إلهام القلب أو إذا لم يُهدئه العشق. أو لم يكبحه الفن وبقي هو و«ما هو جلي للعيان». عند ذلك يمكن «لشكر» أن يمنحه النسيان أو «للانتحار» أن يمنحه الخلاص، فالموهبة الوحيدة التي تستطيع أن تشبع الإنسان «بما هو موجود». و«تسعه» في دوامة «الإنتاج من أجل الاستهلاك والاستهلاك من أجل الإنتاج». و«العيش الرغد من أجل توفير أدوات العيش الهنيء» هي «الحماقة». يا للدهشة. يا للدهشة. فحتى الحماقة هي موهبة إلهية؛ لأن المرء بإمكانه أن يقتل نفسه ولكن لا يمكنه أن يتخذ قراراً كي «لا يفهم».

الوحدة - وبهذا المعنى من الأفضل أن أقول: «الفراق» أو «الغربة» كما أفهمها أنا - على خلاف الأحكام الجاهزة التي يطلقها الواقعيون السطحيون. لا تتوافق مع «المثالية» الصوفية الشرقية (من لاوتزه وبودا وصولاً إلى التصوف الإسلامي) ولا المثالية الفلسفية الغربية (من أفلاطون وصولاً إلى جورج بيركلي). ولا حتى مع السريالية ولا الذهنية. كما أنها بعيدة جداً عن «الواقعية» الضيقة المظلمة التي تبناها «دوغماتيو الفلسفة الجدلية». أما المثالية فهي ضربٌ من «المثل» البرجوازي» أو إنها مجموعة آلام وأحلام فلسفية وحسية «لأناس مرفهين»؛ و«الرفاه» نفسه هو نوع من «الغفلة» والغفلة «جهل». إن الفكر الذي ليس فيه ألم ولا التزام ولا هدف هو فكر يبحث عن «اللهو» والفكر الذي لا علاقة له مع الحقيقة وينتهي في خلاء فارغ فإنه يصل إلى عدمية «سارتر» وإلى عبث «كامو». أو إلى جزع بيكيت" من الانتظار. أو إلى «انتهازية» كافكا أو إلى خداع النفس و«الجنان الخيالية» لدى «أندريه جيد». أو إلى طغيان السريالية ال «السوداوية» أو إلى تخيلات هيغل أو توهمات بركلي...

إن حياة هؤلاء المشبعين الفارغين التي تمر جاهزة بدوامة منتظمة تخلق فيها الإثارة وتمنح معنى للوجود وحجة للحياة من خلال «الغرائب والعجائب» والروايات البوليسية والألعاب الجنسية والمازوخية والسادية! " والملاهي الغربية والتبرجات الفنتازية

المحيرة. والحركات السريعة المدهشة للرقص والألوان والأضواء؛ و«الانطباعية» والذهنيات الاصطناعية المجردة «لشكلائية». ومن خلال تأكيد مبدأ الأسلوب في الفن والأدب وحقى الحياة.

وأما «الواقعية»! إذ إن قيمتها مرتبطة بقدرتها على نبذ الأسس البرجوازية. وإلا فإنها ليست إلا توهين قوة الفن المبدعة الإلهية. والنزول بالفكر الصادم المتمرد والأحاسيس العقلية الغيبية غير المادية للإنسان إلى مستوى «الواقعية الحسية» وحصر «الرسالة الأبدية» للإنسان في مضيق «الضرورات الوقتية» وجعل الإبداعات الفنية وسيلة لسد الحاجات الأنية والمادية. والمساواة بين «القيمة» و«الربح». وبين «الهدف» و«الأصل» وبين «الحقيقة» و«المصلحة».

وبين «الجمال» و«الفائدة». يقول شاندل: «النتائج» هي من أصدق الأدلة لتسويغ «الوسائل» وتصديقها. ولكن إذا أعدنا النتيجة ملاكاً لتقييم الوسيلة فحسب فسيُخشى عندئذ من أن نضع قيمة أسمى من النتيجة وسيلة لها. لا شك في أن هناك ظروفاً خاصة تحدث في الحياة والتاريخ. «تُحتم» علينا فعل ذلك. إن الضرورة. في بعض الأحيان. توجب «ترجيحاً بلا مرجح». فعندما يهجم سيل أو يشب حريق في المدينة. تكون «وظيفة العمل» على عاتق الجميع. وعندما ينتشر الجوع فإن الحديث عن الموائد الروحية يُعد خيانة؛ خيانة ليس للحياة المادية فحسب. بل حتى للحياة المعنوية الروحانية. على خلاف مقولة «سعدى الشيرازي» فإن الداخل إذا فرغ من الطعام فإنه يصبح بيتاً للجهل والظلام! وحتى ديني يعلن بأن «من لا معاش له لا معاد له».

المثالية أم الواقعية؟ بهاتين النظارتين الدائميتين لا يمكن مشاهدة ما أشاهده أنا في «الإنسان». إن العين التي تنظر إلى المدن والأحياء لا تجد شيئاً في الصحراء. وهناك عين أخرى تستطيع أن تجد وترى ما لا يوجد في الأحياء والمدن الضاحجة. ومن أجل مشاهدة بعض الألوان وفهم بعض الأقوال. لا جدوى من النظر والتفكير. بل يجب «النهوض من حيث ما نحن فيه دائماً». إن المرء خلال كل قبه المختلفة يجد حقائق مختلفة. ففي كل حقبة. ثمة بُعد معين وفي كل بُعد يصير المرء كأننا آخر وعالمه أيضاً يصير عالماً آخر ولا جرم في أنه تصبح لديه نظرة أخرى ولسان آخر.

في منتهى الفهم. يجد المرء نفسه أسيراً في أربع «حيوات»: «الطبيعة» و«التاريخ» و«المجتمع» و«النفس»! وسيكون الحديث ذكراً للمعاني والعواطف والألام والاحتياجات الإنسانية. ففي كل من هذه الحيوات الأربع يكون على شاكلة معينة؛ تارة يتحدث عن الوجود فيكون كلامه فلسفة؛ وتارة يتحدث عن التاريخ فيكون موضوع كلامه الإنسان. وتارة يتحدث عن المجتمع فتكون السياسة موضوع كلامه. وتارة يتحدث عن نفسه وعندها يكون كلامه شعراً.

ما قلته على امتداد عمري كله كان عن السياسة. لقد كان الضمير المتصل والمنفصل («نا» و«نحن») هو الذي تحدث عن نفسه وعن زمانه ومكانه في قالب ال «الأنا». ولا جرم في أن مخاطبي هم أناس عصري وموطني.

إلا أنني كنت أجد نفسي أحياناً كأننا في هذا العالم العظيم. وأحياناً أخرى رجلاً في نهاية الزمان وبهذا التاريخ الهائل الذي يجري في عروقي؛ وفي بعض الأحيان كنت أجد نفسي رجلاً منطوياً على ذاته في هذه اللحظات كنت أنسلخ عن كل ما كان. في لاشعوري» جزءاً من ذلك الكل وبعدها من تلك الذات» وكنت أمسي وحيداً مجرداً. وأتحوّل إلى ال «الأنا» وبإزائي الوجود. أتحوّل إلى ال «الأنا» والعيش في داخلي وأمسي أنا ومعني «الذات»! في هذه ال «الأنوات» الهائلة المبهولة كانت تحل في المعاني والعواطف الغريبة. وتنمو في داخلي الألام والحاجات المجهولة. وتتجسد من دون أناي وتتحوّل تلقائياً إلى كلام. هناك لم تعد الكلمة بعد علامة دلالية. فحسب تعبير سارتر تصبح «شيئاً» و«صورة»؛ ولم تعد مدلولاً ومقصوداً بل صفة وماهية للفظ؛ ولم تعد الألفاظ علامات إخبارية تعاقدية. فحسب تعبير شاندل تصبح بضعة من وجود المرء. ولا جرم أنها غير مقيّدة بقواعد الترتيب والإخبار ولا بقيود المخاطب؛ إذ إنها تحدث ولا تقال. لذلك فإن غرابة الأسلوب واللغة في هذه الكتابات ولدت صعوبة في فهم الابتداء والغرابة في هذه المعاني الفكرية والشعورية التي هيس هناك غير قابلة «للتفكيك» ومن ثم تمكن النقاد التجاريون. في هذا الكتاب من اصطباغ فريستهم بسهولة. بل وحتى الباحثون عن المعاني الصادقة لن يتمكنوا من أن يجدوا شيئاً سوى قشور خفيفة على سطح هذا الكتاب. وربما جمال فني في الكلام والتعبير وجاذبية الوصف والتشبيه. إلا إذا حازوا على بُعدي التلقي وعلى أساسى الثقافة. لأنه هنا الصحراء. والعيون المدنية لا ترى فيها شيئاً سوى شروق وغروب جميلين وسماء مزدانة بالنجوم.

هذا الكتاب. حسب تعبير سارتر. هو مجموعة من الأشعار. وإنه. بالمعنى الفارسي لهذه الكلمة. غزليات وفتات مصدر لصدر مكلوم وبث شكايات بروح صحراوية؛ وإن هذه الصحراء هي عالمي وتاريخي ووطني وقلبي. ونفسي الغريبة. ومعيشتي الجرداء

الملتهبة وأخيراً حكايتي. هذه الصحراء الظامنة المألى بالأسرار المستعرة المنتظرة الحزينة على الوجود!

على من يقرأ هذه الكتابات ألا يظن نفسه مخاطباً. فلا مخاطب لهذا الحديث بل عليه أن يكون مشاهداً له وباحثاً فيه. وألا يقرأ الألفاظ والعبارات. بل يلمس ويتذوق ويشم المعاني والعواطف التي تحولت إلى جُمَل وكلمات؛ ليس كقراءته لـ«رسالة» ماء بل كمشاهدته لحياة شخص ما؛ وليس كما يستمع إلى خطاب متحدث. بل كما ينصت إلى نغمة موسيقية؛ أو كما يشاهد وحدة متألم يعني نفسه.

فلا يوجد أي شيء في الصحراء. لا حديث ولا أحد. زوبعة هائمة هائجة في هذه الشساعة الظامنة. تهب وتثن وتبحث وتصرخ كروح وحيدة تائهة.

أما أنت فادخل قليلاً من حاقة هذه الصحراء إلى الداخل وظلل بيديك على عينيك ومن دون أن تنوي ممارسة النقد الفني اجلس وشاهد المأل. شاهد الدنيا من وجهة نظري! سز في هذه الصحراء مع قافلة قلبي ويزاد ثقافتني وعلى جاذة تاريخي وبسياط آلامي وأشواقني! سر في قلب هذه الصحاري من خلال عبق كلامي وليس بدلالة ألفاظي. ولتنتيه في صميم هذه الصحراء العميقة لتشاهد وحدتها وغربتها وهولها وجلالها وعظمتها وملكوها وجمالها البريء الأخاذ ولتمرّ هناك على ماوراء طبيعة هذه الدنيا وعلى غيب هذه الأحزان والأفراح القريبة الجليلة المكررة؛ لتأخذ بعد ذلك بلعني أو بالثناء علي. برغم كل ذلك أقول: يا أيها القارئ الصادق للصحراء. يا أيها الصديق. يا أيها العدو العالم. لا تسمع إلى هذه الششقشة كما لو أنها ششقشة نفس " بل شاهدها! ولا تقرأها. جذها! وبحث عنها!

وقبل أن تفكر بما تريد قوله. فكر بما أقوله أنا.

فصل 2

الصحراء، التاريخ الذي اتخذ مظهرًا تاريخيًا

كُتبت بواسطة

[Islam](#)

الصحراء، التاريخ الذي اتخذ مظهرًا تاريخيًا

الصحراء. التاريخ الذي اتخذ مظهرًا جغرافيًا

على حافة الصحراء. حسب تعبير صاحب كتاب حدود العالم، "ثمة «قرية» تبدو مختلفة عن جميع قرى إيران. عين ماء بارد. في تموز الصحراء الملتهب" كأنها تخرج من وسط كتلة ثلجية كبيرة. من سفوح جبال إيران الشمالية! تنحدر إلى قلب الصحراء. وتظهر في قلب حصن مزينان] في وسط هذه الجدران الكالحة الغامضة التي حفظت في أحضانها القرون البالية. القرون التي ألحقها الإسلام بالأساطير. وهي على الرغم من قساوة التاريخ صامدة حتى الآن. ومن هنا ترى الأشجار المعمرة التي وقفت جنباً إلى جنب على مدى سنين طوال. تشيع الماء إلى البساتين والمزارع. وبهذا تشكل صفاً في منتصف شارع مستقيم كأنه العمود الفقري لهذه القرية الكبيرة. وعلى طرفي الشارع. أزقة متساوية متقابلة مستقيمة. تلتحق كلها في النهاية بشارع يفصل داخل القرية عن سورها.

كأنها حقاً حي عشقي صغير. وكما يُقال يُنبئ على شاكله العشق. قبل مئة عام؛ عندما جرف السيل مزينان القديمة. اضطرت الأهالي لبناء كل شيء من جديد. يتحدث كتاب حدود العالم عن «رجال» مزينان وعن «عندها». منذ ألف عام ومئة حتى الآن هي على الهيئة نفسها والوصف نفسه. رجالها أشداء. شم الأنوف. لا يعدون أنفسهم ريفيين. ويرون أن أهل المدن متسولون محتالون. وأن دعاة الحداثة هم نساء ملتحية. ويستغربون لماذا يزيلون. في أكثر الأحيان. ورقة الاعتبار الوحيدة وعلامة الرجولة هذه؟! وبساتين عنبها ما تزال عامرة. برغم المادية التي غزت الرى ونهبت جميع البساتين. وعناقيد لؤلؤها وياقوتها تلمع كالمصابيح.

ويتحدث تاريخ بيهق عن شعرائها وعلماؤها ورجال الفقه والحكمة والشعر والأدب والعرفان والتقوى الذين عاشوا فيها. في تلك الأيام؛ عندما كانت باب العلم مفتوحة على الغني والفقير والقروي والمتحضر. وكان كبار أساتذة الحكمة والفقه والأدب يجلسون في غرف المساجد أو المدارس وليس في «الدوائر». وكان التلمذ على أيديهم لا يتطلب دفع المبالغ الطائلة والحصول على الشهادة أو الخضوع لهم. فقد كانوا حينها بعيدين عن التكبر والأبهة؛ فقبل أن تؤسس «الدائرة الفلانية العالية الخاصة بتغيير النسخ المطبوعة إلى نسخ خطية» كان ذلك الولد القروي. ابن ذلك الفلاح الضعيف الذي لم يتحمل البقاء في القرية من شدة الفقر والجوع. كان يستطيع الدخول إلى المدرسة بثوب خشن وجبة بسيطة. من دون أي شروط. وكان يحصل على غرفة ومنحة دراسية ويمكنه اختيار الأستاذ الذي يحتذه. "لم يكن الأستاذ يهجم فجأة على الطالب ليبلغه بأنه مفسول. كان الطالب كالظمان يبحث عن ماء المعرفة وينتقي ما عذب منه وكان يجد ضالته ويتبعها. ليس خوفاً من محاسبة «الحضور والغياب» بل بقوة الإرادة وبجذبة الإيمان. لذلك كلما كان يجتمع أبي مع زملائه في الدرس" ويتذكرون دروس الحوزة.

وأخلاق الأديب النيشابوري الكبير وأغا بزرك الحكيم والأشتياني والميرزا حسن علي قهرمان والميرزا الأصفهاني، تشتعل وجوههم من لهب الذكريات المملأ بالعصمة والقداسة. وتدمع أعينهم حسرة على تلك الأيام! كأنهم أصحاب الرسول أو الإمام. أو أولئك المتوقدون بلهب الحب والمودة وهم يتحدثون عن مرادهم. أما أنا فإذ أجلس مع زملائي. نجتز ونقبع معاً ذكريات أيام الدرس» نلزم خواصنا من ألم الضحك. فذات يوم أطلقنا «جُرداً» في أثناء محاضرة معلم الخط. وفي يوم آخر. في أثناء محاضرة مدرس الكيمياء. أصدر أحد مشاغي الصف «ريحا» فعندما غضب المدرس وأراد توضيحاً وسأل عن الريح؟ قال له: إنها «رائحة تجزئة الماء!». وفلان الذي كا أصدقاء أوفياء فيما بيننا على مدى أيام الدرس والمدرسة. وعند تسجيل الحاضر

والغائب كنا نهتف: حاضر بدلاً عن الشخص الغائب. والمحتال الفلاني الذي كان يتفق مع الطلاب وفي أثناء المحاضرة. عندما كان المدرس ينشغل بشرح المادة وكل الطلاب ينجذبون إليه. كان يهوي فجأة إلى الأرض ويرفس برجليه ويشخر ويخرج لعابه من فمه؛ والمدرس المسكين ينخطف لون وجهه. وحتى نُصحي زميلنا من حالته الخطرة التي يتظاهر بها يدق الجرس وعندها تنتهي المشكلة! وتلك المُدرّسة الأجنبية التي سمعت أن الطلبة الإيرانيين يَغشون في الامتحان. فابتكرت طريقة ذكيّة لتمنع الغش. كانت تحضر مقصّاً عند الامتحان الشفهي ونقول للطالب: «أطبق كتابك». ثم تنزل المقص على وسط الكتاب كمن يريد الاستخارة. وتتفحص الصفحة التي عينها المقص لتطمئن أن الطالب لم يكتب عليها معاني المفردات - وبعد أن تتأكد تماماً كانت تقول: «اقرأ!» وقد اكتشف صاحبنا المحتال ذاك طريقة أبطل بها مفعول طريقة المقص " طريقة يختار فيها الطالب صفحة من الكتاب عند باب غرفة الامتحان ويقرأها مرات عدة مع زملائه وبعد أن يحفظها عن ظهر قلب يلوي طرفي الكتاب من الخلف جاعلاً تلك الصفحة وسط الدفتين. ثم يطبق الكتاب ويدخل. وما أن يصعد المقص السحري وقبيل أن يمسه حافة الكتاب" يفتح الطالب أصابعه قليلاً عن غلاف الكتاب لتبرز تلك الصفحة المعينة قليلاً وبحركة ظريفة يجعل فتحة الكتاب تحت لسان مقص الأستاذة. وكان المقص ينزل اضطراراً «صدفة» على تلك الصفحة المعنية نفسها. تم تتفحص الأستاذة الصفحة ليطمئن قلبها وبعد أن تتأكد من عدم كتابة أي غش عليها تقول: «اقرأ!» وعندما يقرأ الطالب تقول له الأستاذة متعجبة:
- أحسنت " جيد جداً! أنت!؟

- نعم يا أستاذة. لقد اجتهدت كثيراً ففي تلك الأيام كنت أقرأ مادتك فقط التي كنت ضعيفاً فيها. أما الآن فأتحسر كثيراً وأسأل نفسي: لماذا كنت كسولاً ولم أقرأ درسكم منذ بداية السنة!
- مرسى، مرسى، ووزت تره زانتليجان. مه. امبو... بارسو!... منتان.... ساواتره بين!
- لا عليكم. عفوا! إنه من غبانكم يا أيتها المادام!
- أ و... بادوكوا!...

كان الحديث عن مزينان. قبل ثمانين عاماً تقريباً. جاء إلى هذه القرية رجل فيلسوف فقيه. كانت له شخصية بارزة ومقام رفيع في حلقة درس المرحوم الحاج ملا هادي أسرار - آخر فيلسوف من كبار حكماء الإسلام - لقد جاء إلى هذه القرية ليقضي عمره في الوحدة وليموت في صمت منسياً على حافة الصحراء الضامنة.
نقلاً عن المرحوم الحكيم السيزواري الكبير. أنه كان يجالس «الملا هادي أسرار» بصفته صديقاً وليس تلميذاً. فهو قد أخذ الحكمة سابقاً عن خاله «العلامة بهمن آبادي» الذي كان أستاذاً في الكلام والحكمة والفقه. والذي كان ينافس الحكيم أسرار في الحكمة. ويرى بعض المتخصصين أنه كان يفوقه في الحكمة. ويرغم أنه كان معتزلاً في بهمن آباد وهي قرية صغيرة قرب مزينان. لكن صيته قد ذاع في الحوزات العلمية في طهران ومشهد وأصفهان وبخارى والنجف. ففي تلك الأيام لم يكن ثمة علماء محرّفون وتكتلات وأطراف ذات صحف وأقلام وذوي مقالات ومقاولات وعقود وغير ذلك. ليخنفوا العلم والفضيلة. ولم يأت بعد. قرن العلم والنور والحضارة والطباعة والثقافة العامة. إذ لو بقي آنذاك نبوغ ما في بلدة نائية ولم يصل ذكره إلى النوادي والمحافل ومراجع الفضل في طهران سواء قديماً كان أو حديثاً أو أن صاحب هذا النبوغ لا ينوي التوصل إلى هذه الأماكن ما كان ليبقى مكتوماً. فحتى لو أخرج يداً بيضاء تجذب الأنظار ما كان لبيتهم بالسحر أو بما هو أسوأ منه.
وصلت سمعة العلامة وخبر نبوغه في الحكمة إلى طهران. واستدعاه الملك القاجاري آنذاك إلى العاصمة. وأقام محاضرات في الفلسفة في مدرسة سبهسالار وكان يتقاضى راتباً سنوياً من ناصر الدين شاه قدره أربعون تومانا. لكن وسواس الوحدة وحب الهروب إلى الخلوة - الذي كانت يسري في دم أجدادي- أرجعه من تلك الضوضاء إلى الانعزال في بهمن آباد. وإلى الحياة. منظوياً على نفسه هارباً من الضجيج التافه الملوث في ذلك السواد الأعظم إلى الخرابات القديمة. خارج هذه القرية! حيث كانت له روح حزينة قلقة. فعند سكون الليل كان يتجول بيت وحيداً في هذه الخرابات ويجلس تحت ظل جدار. وبينما هو غارق في جذباته الغامضة. كان ينجس نفسه ورتبه. وقد كانت هذه حياته.
يقال إنه كان يحب هذا البيت من الشعر كثيراً وكان يردد دوماً:
**متى تلج هذه الأحاديث في أذن الحمار؟
بغ أذن الحمار واشتر أدناً أخرى!"**
كذلك شأن تلميذه. الذي قضى شبابه في التعلم وادّخار المعرفة. ساكناً في الغرفة الضيقة الرطبة في مدارس بخارى ومشهد

وسبزووار القديمة. وجالساً أمام المدرسين وكبار الأساتذة في ذلك الحين. لما حان وقت الكمال والوصول إلى مقام روحاني وشأو علمي رفيع وزعامة الخلق وعندما تهيأت له الظروف ليصبح مرجعاً وصاحب رأي ونفوذاً واسم وشهرة وصيت. لما حان وقت كل هذه الأمور. تركها كلها. بعد رحيل الحكيم أسرار. اتجهت الأنظار نحوه ليحافظ على رونق حوزة الحكمة وانتقاد مصباح العلم والفلسفة والكلام. فقد كان خلفاً صالحاً له. لكن " قبيل أن تثمر الشجرة التي سقاها بثمن شبابه ولما حل ربيع حياته العلمية والاجتماعية. انقلب فجأة. الفلسفة والدين أوصلاه إلى هنا. الفلسفة علمته أن الغوغاء والجهد ومكر الحياة كلها خدعة وكلها فارغة كاذبة تافهة. والدين علمه أن الدنيا وما فيها مدنسة وأنها لا تخدع القلوب الطاهرة والأرواح السامية ولا يوجد في هذا المستنقع سوى حشرات قذرة. تسكر وتنتعش في الوحل والماء السن. ولأنه لم يشأ أن يخدع ويتلوث بالقدارة؛ ترك المدينة ومتاعبها. وجعل العيون بالانتظار. وجاء إلى قرية ما انتظرت يوماً قدوم أحد مثله. قبل ثمانين سنة. في بداية تكامله. بشفاه صامتة. وبرأس هائج بالفكر وبحاجبين مقرونين من الإيمان والعزم تلافى اليأس أمام كل ما هو موجود على التراب وتحت هذه السماء. وبخطوات مطمئنة وقورة لا تريد الذهاب إلى أي مكان. وبوجه رحيم ببراءة هذه الناس وبعيون لامعة من النبوغ والذكاء وبابتسامة بسيطة وبكل تواضع بإزاء عظمتهم «هو». ويرأس شامخ أمام تهاة الدنيا وأهلها وبمظهر بسيط بعيد عن الرياء. وحر من فرط الاستغناء والصفاء. جاء إلى هذه القرية ونزل في بيت صغير في زقاق ضيق وبقي ينتظر نهاية هذه اللعبة المكررة عديمة المعنى لهذين المهرجين الأسود والأبيض إلى أن توفي. وقد نقل عنه أهل القرية الأصفياء كثيراً من العجائب: شبه إمام. شبه نبيء ملك. ولي من الأولياء. وعلى أي حال " غريب على أناس هذا العالم وفي هذه القرية! عندما يريد الخروج من مكان ما كانوا يضعون نعليه أمام قدميه احتراماً له... لقد أخبر عن يوم وفاته... في عام الجفاف. شكت بناته إليه أنه عام صعب فماذا نصنع في الشتاء ومن دون قمح؟ عندها هاج غضباً. وفي منتصف تلك الليلة أفرغ الناس من نومهم صوت انهيار من مخزن الغلة. فهرعوا لينظروا فإذا بالقمح ينصب من فتحة المخزن وقد مُلئت بعض المخازن...»

علي الكربلائي بن مؤمن الكربلائي. ذات ليلة كان ذاهباً للصحراء لجلب الماء» عند المشرعة: «رأيت في ضوء القمر الخافت، ظلاً يقترب من بعيد؛ اقترب أكثره كانت دابة تشبه البعير وبلون الفرس. اتجهت نحو المقبرة ووقفت عند قبر الحكيم. رأيت أناساً قد أخرجوا جنازة ووضعوها على ظهر الدابة. ثم اتجهت نحو المغرب وغابت عن الأنظار... بعد لحظات انتبهت لنفسي فإذا بي قد أغمي علي من شدة الرعب...» أشخاص آخرون كانوا أيضاً في تلك الليلة في الصحراء. قد شهدوا الحادثة بصورة أخرى: «نؤ من السماء من جهة المغرب نزل على القبر...»

ثم رجع من الطريق نفسه نحو السماء.» لقد توفي سنة (1318 هـ). والغريب أن في سنة (1336 هـ) أي بعد ثمانية عشر عاماً. جرف السيل قبره فأمر جدي الكبير بإعادة بناء القبر. في حفرة اللحد ما وجدوا أي شيء سوى تربة صلاته ومسبحة... بعد سنوات. لما توفي ابنه الزاهد وصاحب الكرامات «الشيخ أحمد». دفن في هذا اللحد الخالي. والآن. الأب والابن يرقدان في لحد واحد... لا. بل إن الابن مدفون في اللحد الذي كان الأب مدفوناً فيه. ولأن الخليفة كانت تضايق روح الأب في حياته. ما أرادوا أن يحتفظوا به في عُش ضيق مظلم. حيث يعلمون أن نعشه المنخور هو أيضاً لا يتحمل الضيق. فذلك أنقذوه. إنه. الأخوند الحكيم. جد أبي.

كم كان ممتعا ما حكى لي عنه! إنني في هذه الحكايات أجد المصدر الطبيعي لكثير من المشاعر ذات الجذور المجهولة التي ألقاها في أعماق ضميري. وهذه هي معاينة مدهشة ومكاشفة مثيرة! كأنهم يتحدثون عن أحوالي وعن عواطف وخصائص روحي وحياتي " قبل هذا العالم" قبل ولادتي وقبل حياتي هذه.

إنني قبل ثمانين سنة. وقبل نصف قرن من مجيئي إلى هذا العالم! كنت أشعر أنني توأمه الروحي. لا ريب في أنني كنت في روحه وفي دقات قلبه وفي دمه. كنت أسري في عروقه. كان هناك أثر مني في نظراته والآن إنني ممتن له. لأنه كان هكذا وفعل كذا. فلو كان ذاهباً إلى طهران أو إلى النجف ومرتقياً المقامات والدرجات بدلاً من اللجوء إلى قرية نائية. لكنت الآن أتحدث عن رجل غيره؛ كالمرحوم الحاج الشيخ عبدالرحيم". أو السيد أبي الحسن الأصقهاني أو الأخوند الملا محمد كاظم الخراساني (الذي كان تلميذاً للحكيم). من أمثال هؤلاء الذين «رُكع أمامهم سفير بريطانيا العظمى!» لو كان الأمر كذلك لما كنت قد ابتهجت وانغمرت في الفرح مثلما أنا الآن.

وأما جدي. فإنه هذا حذو أبيه. يقولون إنه قد اجتاز في العلم مرحلة الاجتهاد. وأنا أقول إنه اجتاز العلم والاجتهاد. وهو بعد كل ذلك عاد إلى القرية النائية تلك البعيدة عن طريق طهران إلى مشهد. وابتعد عن الناس وبقي وفيا للنقاء وللعلم وللوحدة وللغنى وللتفكير مع نفسه. بقي وفيماً لما ورثه عن أسلافه. إذ لم يصله أي شيء منهم سوى هذا الميراث العظيم. هذه هي فلسفة البقاء إنساناً في حقبة تكون الحياة قذرة جداً. إذ إن البقاء إنساناً لأمر صعب جداً. ففي كل يوم يجب الجهاد من أجل ذلك ولكن الجهاد لا يتيسر

في كل يوم! فعلى حد تعبير الفردوسي شاعر الملحمة: إن الأيدي والأرجل تصيد الغزال أما الفقر ومرور السنين يستهلكان قوة المرء' "حتى ينتهي به المطاف السقوط! ومن بعده عمي الكبير الذي كان من أبرز تلامذة مدرسة الأديب الكبير. بعد أن أتم دراسة الفقه والفلسفة وخاصة الأدب. سلك نهج أجداده واتجه نحو الصحراء ورجع إلى مزيان.

إنه عالم ذواق مطلع على الشعر وذو إدراك قوي وقوة خارقة في المطالعة. منذ أن كان تلم تلميذاً مبتدئاً وحتى الآن يسهر مع الكتاب حتى يغفو عليه. وهذه هي حياته. المدرسة القديمة التي أنشأها شريعتمدار الشهير لحي الكبير والتي كانت منذ سنوات عامرة بالطلبة والدرس والبحث ودوي المناقشة. ها هي اليوم موحشة. وبيت أجدادي ذاك. الذي كان مرجع الناس لحل المشاكل المستعصية وملجأ المظلومين والغرباء والنساء المطرودات من الأزواج والرعايا الهاربين من السلطان. ها هو اليوم خاو. وأما عمل الحكيم الكبير وعمل أخلافه وأسلافه. فيمارسه اليوم ضابط عسكري ونفر من موظفي دائرة الناحية ومسؤولي الأحوال والأسناد وعدد من المعلمين الحائزين على شهادة السادس الابتدائي. فلقد أصبح للعمل لنظام وترتيب وتسجيل.

لكن أبي تمرد على التقليد القديم. فلم يغادر المدينة بعدما أنهى دراسته بل بقي فيها وقد شهدت معاناته حتى استطاع أن يمضي عمره في مستنقع حياة المدينة بالعلم والعشق والجهاد من دون أن يدنس ثوبه. فحافظ على حسن سيرته. وكما الآخرون الذين هربوا كلهم إلى الصحراء، فلم يعانون من مشقة الحفاظ على سيرتهم وعدم تدنيس ثيابهم. إذ لا ماء ولا عمران في الصحراء. على كل حال لقد أدخل أبي بدعة في سنة أسلافنا ببقائه في المدينة. وإني ريبب هذا القرار والوارث الوحيد لكل تلك الضياع والعقارات التي خلفوها في مملكة الفقر. وإني ابن ملوك هذه السلطنة التي حكمت أباً عن جد إقليم الوحدة والاستغناء وحملت تلك الأمانات العزيزة. فأنا ولي عهد هؤلاء الملوك الخالدين وبقية هؤلاء الفرسان الذين كانوا يوصلون أنفسهم إلى سقف هذا السماء القصير بمشاعرهم الخالدة وبأفكارهم المعراجية على رفرق الشوق انطلاقاً من ليالي الصحراء المقمرة وصولاً إلى فضاء ملكوت الخيال ليصطادوا طيور الإلهام. ذوي أجنحة ذهبية. وغزلان وحي جافلة في فخاخ جذباتهم السحرية. وليهبطوا عند السحر متعبين إلى خلوة الخلق المؤلمة. وإني الآن، أنا المرهق من ثقل تلك الأمانات الموضوعه على كتفي.

أجول غريباً بين جدارين مصنوعين من آجر معامل ساحة جهار باغ في أصفهان أو في أفران طابوق الغرب. فهما منشغلان فيما بينهما وراضيان من نفسيهما ومرتاحان في الحياة وسعيان ويمضيان من دون ألم. إن الطريق طويل وملء بالصخور والأشواك وعند كل خطوة. لصوص بالكمين وأنا الذي لا أملك رفيق سفر وساقاي ترتجفان وخرجي ثقيل وخائف من القدر. أتساءل ماذا سأفعل؟ أيامي أصعب من أيام «سيزيف» ومثل «لاوكون» " لايت في عذاب الأفاعي الملتقة على أعضائي. فأنا كاهن معبد أبولو المجهول" في طروادة الزائفة مستعمرة أثينا وحيث الأناص عبيد بالس (إلهة الأغنام الإغريقية) « ولم يلف الأفاعي حول رقبتني الجنود اليونانيون بل لفها حراس بوابة طروادة.

دعنا عن ذلك فاتها قصة عنوانها الدم... و...

نحن 7 الشرقيين 7 كلنا «عبيد الماضي» ولسنا «مجرد مائلين للماضي» فإن الميل صفة ضعيفة لنا. وما نشعر به يختلف عما يسميه الأوروبيون بالكلاسيكية. لذلك نجد دوماً «العصور الذهبية» لكل شعوبنا في الماضي. في أي جزء من الماضي؟ في أقصى نقاط التاريخ. حيث لا خاطرة عنه سوى الخرافات والأساطير ولا سبيل إليه غير الخيال. في ذلك الجانب من الشرق الصين في عصرها الذهبي. في حقبة ملوك «فوسه يانغ». الذين يتحسّر عليهم حتى كونفوشيوس والسومريون والبابليون. الذين كانت لهم آنذاك حضارة واقتدار ألمع وأقوى من جميع معاصريهم ومن سائر شعوب العالم. حتى هؤلاء أيضاً يتحسرون في كتاباتهم على عصرهم الذهبي: العصر الذي جرفه طوفان نوح واندفن إلى الأبد تحت ترسبات ذلك الطوفان الكوني! ونحن الإيرانيين أيضاً. حتى في أوج الحضارة الإسلامية وحتى في زمن داريوش وكورش. نتذكر عصر جمشيد" الذهبي. لقد كانت أياماً مليئة بالبراءة والسعادة والعدل. عصر النور والمحبة. عصر يشوقنا دوماً ويجعلنا نتحسّر على نوره ومراته التي تعكس العالم وتحجب عن أعيننا الحاضر والمستقبل. إن فلسفة التاريخ هذه موجودة في روح شعوب الشرق كلهم وبصورة أخرى يوجد في كل شعوب العالم. أو في روح الإنسان «الحنين إلى الماضي» والتبرؤ من الحال والمستقبل وانتظار مسيح في المستقبل.

إن أيام الطفولة هي أيضاً تمثل العصر الذهبي لأي شخص! إنها أيام مفعمة بالبراءة والعزة والمرح في تاريخ حياة كل فرد. وأنا أيضاً. برغم أن طفولتي لم تقض ب«الذهب» بل انقضت ب«الفلولاذ» «إلا أنها الآن تلمع أمام عين ذكرياتي لمعان الذهب. خاصة وأن كل شبابي قد انقضى في آخر الزمان. الرأس على الكتاب والقلب في السماء والجسم في السجن! وحسب قول الفردوسي: «إني أتذكر الشباب منذ الطفولة». غير أنني لا أتحسّر ولا أئن مثله". وبرغم أنها تصرّمت مع كثير من المشاق والمتاعب" فلا زلت بخير.

في البدايات. أي في أيام الطفولة. كما لا تزال متواصلين مع مسقط رأسنا القروي. وعلى خلاف الحال. كان حضورنا في القرية لا ينقطع ولم نتورط بعد بالحياة المدنية. فقد كنا نرجع في كل فصل صيف إلى أصلنا في مزيان وحسب تعبيرنا الراهن كنا «نذهب» إلى مزيان.

مزيان. هذه القرية بأحيائها! واليوم بالأطلال المجاورة لها تذكرني بأهلنا وبالرواية الصامتة لقصص أجدادنا وأجدادي المنسية. التاريخ هذا الخادم العجوز الساكن في العواصم؛ المتملق الذي لطالما كان قلمه خادماً لبطنه ولتبه ساكناً في عينه. ولا يرى سوى الأرقام الغاصّة ب «الحوادث» ولا يكتب سوى لأرباب الذهب والقدرة أنى له أن تطأ قدماه قرية ما ويترك «القصور» المفروشة بالسجاد المنسوج بخيوط الذهب والمرصع باللؤلؤ. ك«قصر شمس العمارة» الذي كان نغير طوبوله يُعلن «أبدية» سلطنة ناصر الدين شاه «شهيد الفاجارية»؛ إذ يقرع في أدمغة الخلائق من الصباح حتى المساء أنى له أن يترك القصور ويمر على «كوخ» الحكيم ليرى أن غرفة ضيوفه مفروشة بقطعة صوف صغيرة. وقد فرشت المساحة الباقية برمال ناعمة جاءت بها رياح الصحراء. أو ليفقد «خربة» العلامة بهممن أبادي المُقمرّة. الخربة التي في ظلال جدرانها المتهاكّة وأعمدتها المائلة. ثمّة روح متألّمة غريبة في قصص جسم امرئ قد أطرق برأسه منشغلاً بنفسه المكتومة. متصلاً بمخلوقات مفعمة بالعشق والمشاعر المرهفة المفعمة بجمال رب الأرباب!

الدهر في ساعة والأرض في دارا!...

ماذا يعرف التاريخ عن هذه الأمور؟ أتى له أن يعرف؟ لقد اصطنعوه ليوصل رسائل نابليون إلى جوزفين. وأن يكون مراسلاً بين لويس وزوجة أخيه النصف رجل الملقبة ب «مسيو» وأن يكون قوادراً لراسبوتين. وليضيء الطريق لولي عهد لويس الخامس عشر في الليالي المظلمة وفي الأزقة وفي ظلال جدران قصر فرساي عند عودته من بيت أحد ضباطه الشجعان الذين أرسلوا إلى محاربة النمسا ذوداً عن عظمة فرنساء وليخلقوا ملحمة وطنية. أما الآن. بثياب مبلة. يعبر على بحار الفخر التي خلفها وينشد بغير نشيد لا مارسييز La Marseillaise. لقد صنعوا التاريخ ليعد كؤوس الخمر للسلطان غازي التي احتساها مثني وثلاث.

وليدؤن ما الذي اشتهاه بعد الشرب؟ وأن يصف بمنتهى الدقة حظيرة جلالة الملك. لقد صنعوه ليشرح هذه الأمور كلها وليصفها بحذافيرها وليتبع مثلاً عساكر «نابليون الكبير» وليسجل في دفتره بحرص وولع الخيول والبشر والزراد والسلاح والخوذة والبزة والطريق والجبل والبر والطقس والسعال والضحكة والشجار والمصالحة والجلوس والقيام وكل ما هو موجود وغير موجود. وليهتف شوقاً عندما يعبر الجيش من جبال الألب. عندها يضرب بكفه على فخذه إعجاباً ويضرب الأرض برجله شغفاً ويسيل اللعاب من فمه كالبعير الهائج. وإذ يعود إلى الديار يفخر أمام الأفلاك والكواكب بما بذل جنابه الكريم من دقة وأمانة في ضبط الوقائع وتسجيلها! ما الذي نتوقه من هذا الخادم الذليل ابن الذليل؟ فيا ترى ما الذي يفعله الآن؟ إذ يدعي بأنه قد تصالح مع الخلق وتعزف على الأزقة والأماكن المتواضعة ودخل في الجمع. لا أذكر شيئاً عن عاداته وانحرافاتة القديمة. فمثلاً ترونه لا يزال حزين على «فاجعة موت كنيدي الأليمة» ولم ينزع حتى الآن ثوبه الأسود ولم يخلق ذقنه. وما زالت الدمعة على جانب مقلته. ففي كل يوم يعرض وجهه الأبوي والأخوي وطفولته البريئة. يعرضها وسط جموع العالم وعلى كل الطرقات وفي كل الشوارع ويثير الضجيج والضحك... ولم يتنازل قط! كما وأنه يتحلى بركة القلب والوفاء بالعهد وبالمشاعر الجياشة. لا يذكر شيئاً قط عن آلاف الآباء والأزواج الذين يسبحون بالدم في كل يوم. ولا عن ملايين العوائل الصفر والسود والحمرة والبيضاء التي فنيت تحت زئير ووابل مدافع وقنابل وبنادق ذلك الفقيد السعيد وأساقفه وأخلاقه وأخلافه. لا لذنب سوى كونهم «ضعفاء وكونهم أناسا اعتياديين». الجريمتان اللتان لا تتلاءمان أبداً. وإذا ذكر شيئاً عن هؤلاء فسيذكرهم مكرها ويمر عليهم مرور الكرام بحيث لا يفهم شيء من كلامها!

لا دخل لي بأفعاله. فثمة حكمة تقول: إن الطبع السيئ إذا ترسّخ في الفطرة لن يزول. لكن مزاعمه الجديدة لا تطاق؛ فهو يدعي أنه قد أصبح من الناس ويعرفهم وصار من أهل الشارع والسوق! ومع ذلك. نراه عندما يعود من خدمة أصحاب المال والقدرة وينزل عند أصحاب الزهد والألم والقلم والكتاب والقلب والعقل. يسمي كالمسولين الواقفين أمام المقاهي والمطاعم ودور العرض والمخابز ومحلات بيع اللحوم الذين يصيرون عيوناً ويحدّقون في البطون والكروش ويتحولون إلى أبي تتسول وتمسك بثياب الأثرياء والأقوياء: نراه كهؤلاء لا يزال ينظر إلى يد أصحاب الصحف والمجلات والمقابلات والبرامج. فبرغم كل الأحوال ينظر إلى المهتم بالعربي والأعجمي أو المحدود بالشارع أو لكليهما؟ عند ذلك يصبح الأمر أفضل كثيراً. فيشعّوذة هذا «السحر المبين» يصبح المرء بطرفة عين. ناقداً معروفاً أو باحثاً أو كاتباً قديراً أو أديباً عليمًا أو اجتماعياً غريباً عجيباً. فهو لم يبق بعد أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه أو لم يكتبها بعد. ومع ذلك يصبح من مصادر الموسوعة البريطانية أو معجم لاروس» أو

فيزيائيا عالميا قال فيه أينشتاين في لقاء معه: إنني أتحدث ثلاثين سنة ولا أحد يعرف ما أقول وقد مضت ثلاث ساعات وهذا الشاب الإيراني يتحدث وأنا لا أفهمه! وهذه هي الجملة الوحيدة في لسان البشر التي برغم أنها كاذبة من أصلها فهي صادقة تماما! أو يصبح خبيرا في العلوم السياسية والفلسفات الحديثة. بدءا من الأومانيزم (النزعة الإنسانية Humanism) وصولا إلى الأونانيزم. أو في النهاية. يمتسي خبيرا متبحراً في شؤون العالم الثالث والتول المتدنية... لاه عذرا. الدول النامية. أي الدول التي هي في طور النمو... ما أدراني؟ كيف لي معرفة ذلك؟

على كل حال فلا فرق. بين أن يكون خبيراً في كذا أو متبحراً في كذا؟ أيا كانت النية أو التوصية فلا يفرق عنده المبدأ القائل: «أصبحت كروياً وأمست عربياً.» ولكل من هؤلاء قوالب جاهزة. فلو تفضلت بإرادة أي شيء سيسكب سائله البلاستيكي في قلبه الخاص ويخرجه ويلصق عليه علامة الكاتب المسبوك، الناقد المسبوك الخبير في شؤون الدول التي هي في طور ال.. المسبوك" الإبريق البلاستيكي والمجداف البلاستيكي و...حتى الإناء والفنجان البلاستيكي. الأشياء التي لا يحتاج صنعها كسابقاتها «إلى مرارة العمل والتصميم والرسم والمقدمات والدخول في الفرن والطرق بالمطرقة والتشذيب والتخريم وغيرها من الأعمال البدائية»... دعنا عن ذلك.

كان الحديث عن مزيان. هذه القرية التي بأحيائها وبالأطلال المجاورة لها هي تذكارات منازل أسرنا. فكل زقاق من أزقتها وكل بستان من بساتينها مسجدها ومدرستها وسورها والكتيبة المنقوشة عليه. التي كنت أقرأ فيها ذكريات من أجدادي ومن الأيام العزيزة الزاخرة بالبراءة التي راحت كلها ضحية «عاهرة الزمان» هذه، التي نهضت فجأة من مجلس شمس وهجمت على موطن النور وهدمت جميع مواريث أعزائنا وخيراتنا الكثيرة واستقرارنا المترع بالحب والضيء وأخذت كل ما كان عندنا ولم تعطينا شيئاً بدلاً عن ذلك سوى «أغلال أخرى».

بداية الصيف. عطلة المدارس! يا لها من بداية حسنة ويا لها من نهاية أحسن! كانت لحظة عزيزة مثيرة؛ اللحظة التي كنا بانتظارها منذ بداية ربيع كل عام. في كل عام كان ينتهي الانتظار ويأتي موعد الوصال إلى الصيف" دائماً في وقته المحدد. كان يأخذنا بدفء وأمل وحنان من غربة سجن المدينة إلى موطننا الخرساني الصحراوي؛ لاء بل كان يُرجعنا إليه. نعم. لقد كان يأخذنا إلى مسكننا منفا الصحران؛ المنفى والصحراء. كلاهما صحيحان! وردت كلتا القراءتين لاعتبارين! أقرؤوا شرح هذا الأمر في معجم المرحوم معين! ". أو استفسروا من «جميع المرحومين» الأحياء الموجودين أو «الأموات أبناء النيام». العدم. المكان الذي قطعوني عنه.

الصحراء! الصحراء ليست فقط مسكني ومسكننا بل إنها مسكن شعبنا وروحنا وفكرنا ومذهبنا وعرافنا وأدبنا ورأينا وحياتنا وفطرتنا وذكرياتنا وقدرنا. الصحراء!
هذا التاريخ الذي اتخذ مظهرها جغرافياً!
هذه العظمة اللامتناهية والغامضة التي ألقت نفسها على التراب صامتة بلا أمل. يابسة. من دون ماء و عمران. من دون قُلل العلام المغرورة. من دون ترنيمه مبهجة لأي شاطئ. ولا أية أغنية غرامية لينبوع ماء ولا أية حديقة. زهرة. عندليب، منظر مرعى، طريق، سفر، منزل، مقصد، اندحارة سكرى لنهر، أحضان بحر منتظرة، سحابة، ضحكة وميض رعد، ألم بكاء صاعقة... لا شيء! ساكنة، ملهوفة، حزينة، آيسة؛ منزل الغول والجن والأرواح الخبيثة والذئاب المتوحشة آكلة لحوم البشر! مسقط رأس الخيال والسحر والأسطورة؛ موطن السراب وليس الماء؛ ساكنة. ليس هدوءاً بل رعب. ريحها المُخرقة القاسية تصهر المخ في الجمجمة. وأرضها اللاهية تخيف النبات من الإيناع و«الخروج من تحت التراب». وأناسها. جلد محروق على العظم. بوجوه مشوية وجباه مجمّدة! النظر صعب في الصحراء. يصنعون ظلاً بأيديهم على أعينهم كي لا ترى الصحراء. كي لا تراهم الصحراء ينظرون. وكي لا تعلم أنهم يعلمون! أحياناً تهب عاصفة وتنتثر التراب في الهواء وتكدر السماء وتربك القرى. وعندما تخمد ترجع صورة الصحراء كما كانت.

الصحراء! حيث العواصف الدائمة والسكون الدائم؛ دوماً في طور التحول ولا يتحول أي شيء؛ كالبحر. لكن ليس بحر الماء والمطر واللؤلؤ والسلك والمزجان؛ بل بحر التراب والرمال والغبار والأفاعي والخنفساء وكثير من الزواحف وفي بعض الأحيان تحليق طير وحيد تائه، أو سرب خائف ومن دون وكر. حكاية طاغور وبيغاته. ليس في الهند بل في أرمينيا!

إن ما ينبت في الصحراء هو أشجار الرمث. هذه الأشجار الشجاعة الصبورة البظلة التي تنبت في اللهب برغم مصاعب الصحراء من دون ماء وتربة خصبة ومن دون أن تتوقع أية مداراة. تنبت من صدر الصحراء اليابس المحترق وتقف وتبقى.

كل منها كالآلهة! من دون رعب" مغرورة ووحيدة وغريبة. كأنها سفيرات العالم الآخر اللائي يظهرن في الصحراء! هذه

الأشجار الشجاعة التي تنبت في الجحيم. لكن لا ورق لها ولا ثمر. ولا تزهر. ولا تثمر. والاشتياق والرغبة إلى الإيناع وأمل التفتح يببس في ضمير أغصانها وجذوعها ويحترق في النهاية. بثمة الجموح أمام الصحراء. يستأصلونها من الجذر ويرمونها في التنور و... هذه هي عاقبتها المقترة.

يمكن بصعوبة. رعاية شجر الصفصاف عند غدير أو إلى جانب مجرى ماء صغير في الصحراء. ظلها بارد وبيعت الحياة في النفس. إنها شجرة عزيزة غالية. لكنها ترتجف من الخوف دوماً. حتى في المدن والقرى إذ إن هول الصحراء قاف في جذوعها. لكن الجميل مما ينبت في الصحراء هو الخيال! هذه هي الشجرة الوحيدة التي تعيش جيداً في الصحراء. تتألق وتتفتح عليها الزهور. وزهور الخيال! زهور كالملاك. زرق وخضر وأرجوانية وصفرة... كل منها بلون خالقها. بلون الإنسان المتخيل وأيضاً بلون ما يطير صوبه الملاك ويوكر عليه... الخيال. هذا الطير اللامرئي الوحيد الذي يتجول بحرية في كل أنحاء الصحراء. ظلّه عندما يخلق هو الظل الوحيد الذي يقع على الصحراء. وصوت احتكاك أجنحته هو الحديث الوحيد الذي يشير إلى سكوت الصحراء الأبدي ويجعله أكثر سكوناً؛ نعم! هو سكوت الصحراء الغامض المرعب الذي يتحدث باحتكاك أجنحة هذا الطير الشاعر.

الصحراء هي نهاية الأرض؛ نهاية موطن الحياة. في الصحراء كأننا قرييون من **حدود العالم** الآخر. لذلك يمكن رؤية ما وراء الطبيعة الذي تتحدث عنه الفلسفة ويدعو إليه الدين - بأ العين ويمكن الشعور به. ولذلك نهض الأنبياء كلهم من هنا واتجهوا صوب القرى والمدن. إن «الله حاضر في الصحراء!» لقد أدلى بهذه الشهادة كاتب روماني جاء إلى صحراء الجزيرة العربية من أجل أن يعرف محمداً ويرى صحراء تسمع فيها دوماً ترنيمة أجنحة جبرائيل. تحت غرفة سمانها العالية، وحتى أشجارها وكهوفها وجبالها وكل صخرة من صخورها وحصاها ترتل آيات الوحي وتصبح لسان الله الناطق. لقد جاء إلى هذه الصحراء ليشمّ عطر الإلهام في جوها الغامض.

في الصحراء. لا يوجد شيء خارج جدار البيت وخلف حصن القرية. هناك صحراء العدم اللامتناهية. منام المنايا ومسرح الهول. الطريق مفتوحة باتجاه السماء فقط. السماء! بلد الآمال التضرع ينبوع الحنان والآمال الزلال و... الانتظار! الانتظار... موطن الحرية. منفذ موقع الوجود والعيش أحضان السعادة. روضة الأرواح الطاهرة. الملائكة المعصومة عن الزلل. ملتقى الصالحين بعدما ينجون من هذا السجن الترابي وحياة الألم والقيود والعذاب بواسطة أيادي الموت الحنونة! سماء الصحراء هي ستار عرش الله و... الجنة! الجنة! الموطن الذي لا صحراء فيه. بأنهرها المترعة بالماء الزلال و جداول لبنها وعسلها وخبزها الذي يتحصل من دون متاعب وحرقتها المطلقة؛ من دون جدار. من دون حصن من دون تعذيب، من دون سياط من دون رئيس وأمر وجلالوزة... من دون صحراء! المياه في كل مكان. الأشجار في كل مكان. الظلال في كل مكان! ظلال شجرة طوبى الممتدة على ربوع الجنة وقد أصبحت الشمس؛ نسر اللهب ذا الأجنحة الجهنمية. أصبحت تأنه في أكوام غصونها وأوراقها. سماء الصحراء. الجنة. حيث «يمكن المكوث كما يتبغي». و«يمكن العيش كما يتوقع». إن ما تتحدث عنه الأساطير دوماً في الصحراء هو ما لا يمكن أبداً العثور عليه في الأرض. نعم! في الصحراء. لا أحد رأى هذين الاثنين. الصحراء هذه الفسحة المكتنفة بالأغاز. التي تتقابل فيها الدنيا والآخرة. أرضها الجحيم وسماؤها الجنة. وثمة أناس في برزخهماء بجلود مشوية على أجسام يابسة؛ وجباه مطرزة بالتجاعيد. وشفاه كشفاه الرجل عندما يبكي أو عندما يحترق قلبه من حسرة مريرة أو منظر مفعج؛ وحاجبان يعصران العينين بعضديهما ويخفيانها ورموش يدعو كل منهما الآخر إليه خوفاً وتطبيق على العينين لتخفيهما. وعيون كأنها تتلقى اللكمات دوماً وترجع إلى الوراء. وبنظرات ذليلة تختفي خلف هذه العيون الشاحبة الغائضة و... كل هذا هو من فعل شمس الصحراء الجهنمية! فالنظر صعب في الصحراء ويجب أن تظلل العيون باليد كي لا ترى الصحراء. ففي الصحراء يعبدون الظلال وليس الشمس. ويريدون الليل لا النهار. ولا يبتغون شعاع رعاية العظاماء. بل يبتغون ظلهم وليس نور الله...

ليل الصحراء! هذا الكائن الجميل السماوي الذي لا يعرفه أهل المدينة. إن ما يعرفونه هو ليل آخر. ليل يبدأ منذ العشية قبيل منتصف الليل. ليل الصحراء لا يمكن وصفه. سكون الليل الذي يحل سريعاً بغروب الشمس " ولكن السكون الذي يحل في المدينة يكون عند منتصف الليل مبعثراً منكسراً وغير مستمر. النهار القبيح القاسي الملتهب المنخفق يموت في الصحراء ويبشر نسيم الغروب البارد المبهج ببداية الليل.

ليالي الصيف المستعرة في الصحراء هي ليالي الجنة الخيالية. ضوء قمرها بارد واسع ودود. حيث ابتسامة الإله العطوف. ضوء قمر المدن والأراضي الخصبة العامرة هو ضوء رطب كنيب حزين. قمر أصفر عليل ونجوم كطفح جلد وجه متورم قدر لعاهرة وقحة مغلقة تظن أنها تستطيع أن تزيّن وجهها بالمساحيق الرخيصة وفازلين متعقن قد أخذ من جرح مكولوم. كجرح يابس على ظهر حمار عجوز يحتك بجراجه باستمرار. تظن أنها تستطيع أن تغطي قبحها البليد وشكلها البالي المنتفخ بالتبرج وتجعله وردة

متفتحة وتزينه بزهور نيران الحياء وتضع على براءة حياها الزلال وردة شوق إيمانية إلهية. سماء الصحراء! غابة النخيل هذه الصامته المنيرة بضوء القمر. كلما أضع جذوة قلبي الدامية الهائمة تحت أقطار سكونها الغيبية وأسرح بطرفي الأسير كفراشات الغرام في هذه المزرعة الخضراء لصديقي الشاعر. أسمع أنين تلك الروح المتألمة الوحيدة وبكاءها. أنين إمامي الحقيقي العظيم وبكاؤه. فإنه مثل شيعيه المجهول الغريب هذاء كان يقف على أطراف تلك المدينة الدنية في قلب تلك الصحراء التي لا صرير فيها ويضع رأسه في حلق البئر ويبكي. يا لها من فاجعة. إذ يبكي الرجل!... يا لها من فاجعة!...

الغروب في القرية. يحل بعظمة وجلال غامض غيبي. ويسكت الوجود عنده ويسكن أمامه. فجأة يكر على القرية سيل عدائي أسود. يركض في الأزقة مسبباً الضوضاء. ومن ثم يسكن شيئاً فشيئاً في منعطفات الأزقة وداخل البيوت وعنده يستمر سكوت المغرب؛ إلا عند صيحة شاة غريبة قد انخرطت في القطيع أو عند تأوه عنزة تائهة قد أضاعت طريق بيتها في تلك الضوضاء التي مرّت سريعاً. لكن هذه الأصوات لا تدوم لأكثر من لحظات.

سجا الليل. لا مصباح في القرية. الليل مضاء بالقمر. أو بقطرات المطر الضوئي الهائل من النجوم: مصابيح السماء! كان منتصف ليل صيفي هادئ. وكنت طفلاً في السابعة أو الثامنة من عمري في تلك السنة إذ بقينا في القرية طول الصيف والخريف. كان شهر أيلول من عام «1320ش/1942م». وكان شركاء هموم البشر الثلاثة! قد احتلوا البلد من كل جانب، وقد تركنا أبي في القرية وذهب منفرداً إلى المدينة ليستقبل الأحداث وليرى ما سيجري؟ في تلك الليلة أيضاً. كما في كل ليلة. في دجى الغروب. رجع المزارعون مع ركابهم من الصحراء وخمد ضجيج القطيع. وبعد أن تناول الناس عشاءهم أخذوا السرير والوسادة واللباد والسجاد والملاحف البيض. فصعدوا إلى الأسطح وفرشوا بسطهم واستلقوا على ظهورهم. ليس للنوم. بل للترج والحديث. ليشاهدوا السماء وليتحدثوا عن النجوم. فالسما هي معرض سكنة الصحراء والمنتزه الخر والعامر الوحيد في الصحراء.

ثمة في السماء أشياء كثيرة مسلية لهذه النظرات الأسيرة المحرومة التي تطير إليها طول الليل من أسطح القرية الطينية. أنا أيضاً. مثل كل أطفال الصحراء، كنت أحب السماء وكنت أعرف النجوم. وفي كل ليلة كنت أرنو بطرفي من السطح إلى هذا المشهد الجميل المزدحم بالعجائب والمسليات. وكنت أرسل نظراتي لساعات مع نفسي أو مع أصدقائي أو مع والدي إلى حديقة السماء النضرة للعب مع النجوم.

في تلك الليلة أيضاً كنت مستلقياً على سطح الدار ناظراً في السماء؛ متمعناً في هذا البحر الشاسع المعلق الذي تمر فيه من عالم الغيب طيور النجوم الجميلة الصامته، ذوات الأجنحة الماسية، كل سرب منها يسبح في الفلك بطريقة سحرية، أما القمر الطالع ببريقه الفاخر فهو ابتسامة الحنان الوحيدة التي توجهها الطبيعة إلى وجوه سكنة الصحراء المصابين باللعنة. تفتحت زهور الماس وظهرت فتاديل الصور الفلكية الجميلة التي تحركها كل ليلة يد غيبية من زاوية إلى أخرى في السماء. وتجلي ذلك الطريق النير الخيالي الذي يبدو مسلماً مؤدياً إلى الأبدية:

«طريق علي». «طريق مكة!» هكذا سميت! وهي تسمية سخر منها معلمو مدرستي إذ سمعوا قائلين: لا يا عزيزي. إنها «المَجْرَات»! الآن أدرك تفاهة هذا الاسم. يا له من اسم قبيح. المجرة. درب التبانة. أي المكان الذي يجرون منه الله وذلك الضوء إذن تبن منثور في الطريق! يا للعجب. فأهل المدن يرونه مجزاً أو «مجزرة التبن». وذلك بنظرتهم المثالية. والريفيون في الصحراء؛ الذين يحصدون التبن والشعير. يرونه طريق علي. أي الطريق الذي يسلكه علي إلى نحو الكعبة! دعوا الألفاظ جانباً وانظروا في الروح المُتخفية تحتها في هذا التلقي والتعبير! وتلك الشهب المضيفة التي تتساقط أحياناً على روح الليل الأسود. شهب وسهام ملائكة الله الحارسة في عرشه السماوي! كلما حاول الشيطان وجنوده وجلاوزته أن يخرقوا حيلة. زاوية من الليل وأن يلجوا في قداسته الربانية. حيث لا سبيل لأي دنس وضلالة. وفي خلوة الأنس تلك. وكلما أرادوا أن يسترخوا السمع إلى سر تآبى عصمته العظيمة أن تصبه في كؤوس الفهم المدنسة هذه. كلما حاولوا ذلك يرميهم حرس حجاب عفاف الملكوت بهذه الشهب المتقدة ويدفعونهم إلى الصحراء. بعد زمن سخر أيضاً معلمو المدينة وعلماؤها قائلين: لا يا عزيزي. ما هذه سوى أحجار تبقّت من كراتٍ متفجرة ومتشظية متجهة صوب الأرض بسرعة فائقة وهي تحترق وتفنى لدى ارتطامها بالغطاء الجوي. بهذاء كنت كلما أكبر سنة وأنتقل إلى مرحلة دراسية جديدة أزداد حرماناً لدى رجوعي إلى الصحراء من جمالياتها ولذاتها ومنشأتها المفعمة بالشاعرية والخيال والعظمة والجلال والخلود المخضبة بالقدس والوجود والمكتنزة بال«ماوراء». في هذه السنة. عندما ذهبت إلى الصحراء. لم أرفع رأسي للسماء. كنت أنظر إلى الأرض فقط لأرى... كم بئراً يمكن أن تُحَقَّر هنا... وهناك يمكن زرع الشمندر...! اللقاءات كلها كانت على التراب. والحديث كله كان عن التراب! فذلك العالم المليء بالعجائب والأسرار صار كئيباً ومن دون روح" صار عندي مجرد عدد من العناصر. وذبذبت تحت السُم البارد الاب في هذا العقل الفارغ من الهموم والإحساس. تلك الحديقة المزهرة بالشعر والخيال والإلهام والإحساس الملون التي كان قلبي الطفولي يحوم فيها كفراشة شوق. وقد تلوّث

الصفاء الإلهي لكل تلك الجماليات التي كانت تملؤني بوجود اله. تلوث بهذا العلم المحدود بالعدد والمهتم بالمصلحة. وأصبحت السماء زرقاء. ولم تعد ماسات النجوم البراقة المرحلة نوافذ مفتوحة صوب سقف الليل تطل على فضاء الأبدية. بل صارت نوافذ على حصار غربتي الكالح، ناظرة إلى أنظار قريني الوحيد ذاك؛ إنها كرات من سنخ الصحراء ومن فصيلتها ومن طائفة الأرض وجنسهاء بل حتى أسوأ من الأرض والصحراء! ولم يعد القمر ذلك الملتقى الليلي للقلوب الأسيرة. والينبوع الزلال للجمال وللانطلاق والحب" بل عاد حصة منبوذة مهجورة مميته. لم يعد ضوء قمر الصحراء هطولاً للوحي والإلهام ولم يعد مثالا لثياب آلهة العشق الحريرية المفروشة تحت رؤوين مرهونة بهم ما وانتظار ما وابتسامه ما ومسحة حنان ما على رأس بانس أسير التراب ومتألم مهجور في الصحراء. إنه نور بديل. ولم يعد إلا انعكاس شمس أيام الصحراء الجهنمية القاسية. يا أيها الكذاب... المرائي... المخادع... لم يعد تلك الابتسامة المفعمة بالأمل والحنان والسلوى. فقد أصبح كيباض أسنان ميت بقيت شفتاه مفتوحتين.

إنَّ بهاء طلوع الشمس ودھشتها وجمالها المثير يجب أن يُرى عن بُعد. إذا اقتربنا منها سنفقدھا. نعومة الورد الجميلة تذبل تحت أنامل التشريح. أم. إن العقل لا يفهم هذه الأمور! لا يمكنني التحدث عن الطلوع. الزهور. المناظر هبوب ديار الجوف اللاهوتية. ماوراء طبيعة الروح وملكوت القلب. لا أستطيع أن أقول ماذا حدث ويحدث لها في غارة هذا اللص الأعور وعنده. المزرعة التي تداس تحت سنايك خيله وخيالته. كم تصبح باهتة وكنيية وقيحة! ما الذي يبقى؟ «القيء». «الطاعون». «بلغم متناثر لصدر مسلول». وأناس «ممسوخون». «وحيد القرن». «تريزي»؛ «الحيوان الناطق». ولا شيء قط! لا الإنسان. بل الأداة! لا القلب بل البطن! «ذاك من يهاجمه بأنيابه وهذا من يضربه بمنقاره»". أناس منفخون ب«لاشيء». وحسب وصف علي العظيم: «أشباه الرجال ولا رجال».

الظاهر مزين كقبر الكافر وفي الداخل قهر الله عز وجل

وإني في تلك الليلة بعد النزهة في حديقة السماء. المرعى الجميل المدهش لأهل الصحراء. هبطت على سطح الدار. ولأنني متعب من نشوة ذلك «الإسراء» الممتع الطاهر خلدت إلى النوم في سريري. كانت الصحراء تسطع تحت ضوء القمر. وعم الهدوء القرية. الناس «رجالاً ونساء. كهولا وشباباً. كانوا كلهم نائمين على أسطح دورهم. كأنهم لن يستيقظوا أبداً. نقيق الضفادع الآتي من أقصى نقاط الصحراء. ونداء الجدادج ذات الأماكن المجهولة. كأن عريرها يأتي من الغيب. كانت هذه الأصوات تزيد من صراحة سكون ليل الصحراء. وبدت السماء واقفة فوق الصحراء تنظر إلى الأسطح وإلى سكنة الصحراء المنحوسين الراقدين على أسطح بيوت القرية تحت شراشفهم البيض التي كانت تبدو كالأكفان. وصل الليل إلى منتصف الطريق وأفلت النجوم البعيدة. الثريا في أقصى نقاط الصحراء عزم على الرحيل. جاء القمر إلى قلب السماء ووقف فوق رأسي ينظر إلي صامتاً. ناشر ضياءه في صدر السماء. طارداً النجوم كلها إلى فضاءات بعيدة. فجأة صاح الديك.

الديكة تنادي؟

الديك هو ساعة الصحراء وصوته جرس القرية! ديك القرية هو الزمن الذي ينادي. الزمن. هذا الناعور المكرر وعديم الشعور. الذي لا يعرف شيئاً غير النظام. نظام يقسم الحياة بدقة كدقة نسيج بيت العنكبوت" والإنسان أسير فيه كذباية مسكينة. يشرب من دمه بتدرج دقيق. وهو في هذا السير الدموي المؤلم لا منجى له سوى الصراخ والجهد اللذين لا يعرفهما الزمن. أهل القرية يعرفون جيداً عويل الديك" مؤن القرية هذا. إنه رسول نظام فرض على العالم والإنسان. النظام الذي هشم الإنسان وتركه أوصالاً صغيرة. كل وصلة لقمة تحت أنياب هذين المهرجين: الأسود والأبيض.

نهضت الديكة؟ تنادي؟ هل حان الفجر؟ أصوات تهمس من سطح دارنا والأسطح المجاورة في سكون الليل. لكن... لا. إنه منتصف الليل. القمر والنجوم تدل على منتصف الليل. نعم. حتى سماء الصحراء الجميلة البريئة الإلهية كذبته! ماذا! ديك مزعج! لمن هذا الديك؟ من سطح دار فلان! ماذا نعم... إنه في دارنا... فرخ الديك الشرير المشاكس ذاك! أسفا! لقد كان فرخ ديك جميلاً! ماذا كان ليصبح بعد بضعة أشهر؟ المسكين. كان صوته لا يزال رقيقاً! لم يلتق بعد بدجاجته. لم يلتق بعد... رفع الديك صوته مرة أخرى! ازدادت أصوات النيام. تكاثر الحديث. نهض الجيران كلهم من فرشهم. تحركت الملاحف البيض المفروشة كالأكفان على أسطح الدور. والتي لقت في طياتها أهالي القرية النائمين. أراحها بعض منهم. جلس بع آخره ووقف

بعض آخر وبعضٌ منهم أخذ يمشي... استيقظوا جميعاً بتلاشي ليل القرية وسكونه. اضطرب سكوت الصحراء. لم يقل بعضهم شيئاً. وسمعت بعضاً آخر منهم يقول - وأكثرهم من الشباب - من حسن حظنا أننا استيقظنا. حان وقت حصنتنا من الماء. لو كنا بقينا نائمين لضاع حقتنا ولسال الماء إلى الصحراء وليبس الزرع. كان طفلنا نائماً على وجهه وكاد أن يختنق. عطاشى. قليلاً من الماء... ماء الجدول في هذا الوقت زلال. لنملاً جرارنا باب البيت مفتوح. قطة. كلب. ضبع. ذئب مفترسة... من حسن حظنا أننا استيقظنا... لكن معظمهم كان يتذمر: يا له من إزعاج. إن هذا الديك مشؤوم ملعون. أكثر المعمرين والشيوخ كانوا يتذمرون ويشتمون وهم نائمون.

تخافضت الأصوات ورقد الناس في أسرتهم مجدداً متذثرين بتلك الملاحف الأكَفان البيض.

عند الصباح. جاءت الشمس مرة أخرى آخذة جزءاً من السطح. استيقظت غارقاً في العرق ومنهكاً من الحر. نزلت من السلم. كان السجاد مفروشاً في فناء البيت وأهلي يحتسون الشاي. شاغلام الذي ختم ثلاثة أجيال من أسلافنا وكان يزعم أنه أدرك حكم ستة ملوك. وكان أبي وأعمامي في نظره شباباً لا يعرفون شيئاً عن تجارب الحياة. كان جالساً. آثار أقدام مرور السنين الطوال كانت مطبوعة على وجهه. ولحيته المدورة البيضاء كانت محددة بالشفرة من تحت نحره وخط حدّها الدقيق يشبه خط حافة حذاء. وكان جلد ساقيه النحيلتين ظاهراً ومجمّداً ومليناً بالشعر الأسود والأبيض. وكان جسده أزرق من أثر ثيابه العسكرية الكتانية. كانت البلاهة شاخصة في وجهه. لكنه يبدو حكيماً. وكان الناس يظنون أن غلام العجوز يعلم أشياء كثيرة لا يعرفونها هم. هو أيضاً كان متيقناً من ذلك. كان يحاول أن يتحدث (الفصحى) حتى لا يبدو فيه أي نقص لأن النقص الوحيد الذي كان يشعر به هو لهجته الريفية التي كان يخفيها بطريقة مضحكة ومثيرة للسخرية. وعندما كان يريد التحدث عن الحقائق الأصولية كان يحكي هكذا: (من أجل التخفيض من الازدحام في حركة الناس على النهر. لو استحدثوا جسرين ليمر القادمون على جسر والرائحون على الجسر الآخر هو أفضل مما يستحدثون جسراً واحداً ليمر عليه القادمون والرائحون معاً...!) كان يتحدث بحماس وجدية بالغة ليفهمه الجميع. أخذاً من الحضور التصديق والاستحسان بشفتيه وعينه. كان ينفخ الشاي المسكوب في الصحن بقوة حتى إن قطرات الشاي تتناثر على وجوهنا. بعدما شرب شايه. من دون أن يضع الكأس في الصحن. نهض إلى فناء البيت. فجأة ارتفع صياح الدجاج والديكة والأفراخ. بعد لحظات عاد شاغلام بوجه ظافر. كان جاهزاً لإبداء حكمه وأقواله الدقيقة ليجيب عن أسئلتنا المعتادة. كان فرخ الديك ذاك تحت إبطه ينظر إلينا بعينيه الحمراءوين. لم يسأل أحد شيئاً. كلنا كان يعلم أنه يريد أن يتباهى أمامنا بفكرته اللامعة هذه. طرح فرخ الديك كإسماعيل الذبيح عند باب فناء البيت واضعاً كعب حدائه الثقيل بكل ارتياح على جناحي فرخ الديك الرقيقتين. كان يسحق نحر الديك بقوة حتى إنه لم يستطع أن يصرخ. خرج أبي من البيت كي لا يرى. دخلت أمي البيت وشغلت نفسها كي لا تفكر به... وأنا...

عندما كنت أنظر إلى فرخ الديك يلفظ آخر أنفاسه الملطخة بالدماء. كنت أتعلم درساً سبق أن تعلمه شاغلام. شاغلام الذي أدرك حقبة ستة ملوك.

فصل 3

القناة

كُتبت بواسطة

[Islam](#)

القناة

القناة

إن مجرى الماء الذي يسري في روحك
يجب ألا يفتح عليك جداول من المثالب
قَجْرَة ماء في داخل البيت
أحسن من شاطئ يجري في الخارج

سنائي

هل تعلمون ما القناة؟ من أين تنبع؟ هل تعلمون ما هي؟

سريان المياه الدائم والمتواصل. يكون شيئاً فشيئاً ترسبات على مجرى القناة وعلى جدران ينبوعها والتي تسمى بال «جوش» وتكون هذه الترسبات صلبة وصماء. تغلق كل منافذ المياه في القناة وحتى إنها تسد مجرى المياه ومن ثم تجف القناة.

في أحد الأيام الفاصلة بين الشباب والطفولة. عندما كنت شديد الفضول. طفقت من أجل التعلم والفهم " وخاصة فهم ما لا يفهمه الآخرون. أي الاكتشاف. أو على أقل تقدير الفهم المباشر وليس أخذ العلم الذي عادة ما يكون عبارة عن أكل غذاء قد هضمه شخص آخر وقد فقد لونه ورائحته وطعمه الطبيعي. إذ استطعت بإصرار شديد أن أرافق مُقنّباً ماهراً يزيدياً" مع مجموعة من مساعديه. وأن أذهب إلى قناة قرية مؤمن أباد. حيث موقع عملهم.

أذكره جيداً؛ كان عجوزاً مرحاً خلوفاً قويا كان مع فريق عمله أشبه بالطبيب الجراح الحاذق الذي يرتدي بذلته ويدخل مع فريقه إلى غرفة العمليات لإجراء جراحة للمريض. كانت الثقة في النجاح والإتقان في العمل ساطعا في جبينه وابتسامته. نظرتة الحادة الذكية التي يسطع منها بريق من وهج الفكر. وروحه العميقة. كانتا تسلبان لب كل ناظر وتجذبانه. ففي غياهب القناة التي يبلغ عمقها حتى 160 و170 مترا. كان الضوء الوحيد ومصدر الأمل والطمأنينة. وكان يمنحني. أنا الطفل الفضولي الضعيف القادم من المدينة. قوة قلب وشجاعة. لطالما بدا لي كبيراً مفكراً جليل القدر. لا أظنه على قيد الحياة الآن. كنت أتمنى دوماً أن أراه مجدداً. ولكنني كان ينتابني قلق وخشية من أن أراه مقنّباً كهلاً فقيراً عاجزاً أمامي. منطوياً على نفسه من شدة العوز ومن حياء الأمل" محدودباً ظهره من نائبات الدهر. كنت أخشى من أرى حاله المُحزنة. يسألني يد المساعدة. لا أريد أن أراه ضعيفاً محتاجاً. فهو لا يزال في عيني معلماً كبيراً متمكناً. فقد لقتني درسا غريباً لم أنته من تعلمه بعد.

أفكر أحياناً في أنه كان روحاً كبيرة زاخرة بالأسرار. مهمتها إيقاظي وتعليم أُل درس لهذا الطفل الذي ستضطر فيه مستقبلاً نيران كثيرة. وسيمارس عشقه وغرامه المجنون باليقظة والتحرر تضيقاً لعالمه. سيضيق عليه هذا العالم برغم كل ما فيه من سعة. سيلقنه مثل هذه الدروس بواسطة هذا العرض البسيط المليء بالأحاجي. وهي دروسٌ لن تكون بالسبورة والطباشير وبالقلم والكتاب. بل بالرموز. يعلم بالإشارة. إذ إن هذا العلم ليس علم الثبات. بل علم الصيرورة. إنه فن التحوّل والتغيير من حال إلى حال " ليس اطلاقاً. بل انقلاباً. ولا يأتي من الجهل بل من التعلق والاندماج" وليس مجرد ملء ذاكرة بل هو اضطراب الروح ولم يكن تلذذاً بل رياضة روحية. وليس قلماً بل ألم. وليس ترفاً بل عو وليس ارتياحاً بل مشقة. ولا سكيناً بل اضطراب" وليس سعادة

بل عظمة. وليس ارتواءً بل ظماً وليس خضوعاً بل عصيان. وليس كينونة بل صيرورة. ولا بقاء بل رحيل. وليس علماً بالماء بل بالنار. ولا بالتراب بل بالطوفان!

إن درس الأستاذ في هذه المدرسة ليس بحيلة أهل المنطق فعلى حد تعبير عطار النيشابوري فإن «كلامه هو سوط أهل اليقين». فهنا تتبدل القلوب لا المراتب. هناك لا يوزعون بطاقات التموين الوطنية ولا يُعلّمون علم الأنعام» فهناك قصة أخرى. ماذا أقول في ذلك. فلا يمكن تعليم العشق بسرده...!!"

ألم يكن هو المتجلي في وجه الخضر لموسى وفي فؤاد شمس التبريزي لجلال الدين الرومي. وفي اسم جبرئيل لمحمد. وفي وجه ذلك التابع وذلك الفقير وذلك العليل وذلك الميت لبوذا. وفي وجه ذلك الملاك الخفي لسقراط وفي ذلك النداء للملك البلخي إبراهيم بن أدهم. وفي سيماء فرجيل. وبياتريس لدانتى. وفي اسم مهر اوه لذلك الراهب المتالم في صومعة الحب والوحدة. وفي شكل شمعة لدولاشابل. وفي شبح روح القدس الزاخر بالأسرار لمريم وفي صوت طائر تائه. وفي الخلوة الصامتة لذلك الثاوي في غار وحدته. المتبقي الوحيد من أصحاب الكهف السبعة الذين لبثوا في جبل إفسوس خوفاً من الحاكم الغاصب دقيانوس.

في وسواس ضوء القمر. تلك الليلة الهادئة الجميلة لشاعر الصين الولهان الغارق في سكرة الغرام. لي باي وفي صورة أيوا لبروميثيوس الوحيد في سلاسل زيوس» أسير النسر. أكل الأكباد. وفي عيون رزاس " المتوهجة لشاندلث. وفي الظلال الخيالي ل«هؤلاء» الذين احتسوا خمرة السكر مع حافظ المتسكع وجعلوه يفقد صوابه. وأخيراً تجلى لي في كلام ماسينيون. وفي صمته ونظرته وابتسامته وذكره واسمه وقد لفتهم أول درس من دروس إيجاد النفس أو الرحيل عن النفس وعلى كل حال فقد قرأ عليهم أول سطر من كتاب «الحكمة». أنا أظن بأنه لم يكن مقتنياً فقد كان «هو» الذي تجلى على هيئة مقن وأخذني من تحت هذه السماء ومن على هذه الأرض إلى جوف التراب لأتعلّم الدرس الأول ولينزل السوط الأول على روح نائمة لا تعرف الألم. لقد أخذني إلى قلب الأرض الصلد المتقل. حيث المكان الذي تندر فيه الحياة وحيث المكان الذي تكون فيه أقرب إلى العدم؛ المكان الذي يجب أن نبدأ منه سفرنا العظيم بعد هذه الحياة.

نعم. إن السفر إلى السماوات لا يبدأ من على الأرض. ولا من داخل المدن والقرى والبيوت والأسرة. التحليق نحو السماء يبدأ من تحت التراب ومن أعماق هذه الأرض. تلك السماء ليست هذا السقف القصير المزركش المغفل المثقل على رؤوسنا.

هناك. بعمق 170 متراً تحت الأرض، في ذلك الصف الذي لا يمكن إضاءته إلا ببريق نظراته. في تلك الجامعة التي لم يدخلها آلاف المدرسين من شتى الأطباع والاختصاصات والشخصيات. واحداً تلو الآخر. كوعاظ المنابر. ليدرسوا مواد «تلقينية» لا يدرسونها أكثر من نصف سنة ومن ثم تبلى وتنسى. في هذه الجامعة ثمة مُعلّم واحد فقط؛ لو كان المعلم معلماً حقاً فلا حاجة إلى عدة معلمين. الجامعة الجيدة مكان يدرس فيه معلم واحد فقط إنه يكفي. المعلم الذي يدل على الطريق ويمسك يد من «يروم الرحيل من هنا» ومن «لا يروم البقاء» ويأخذهم معه. معلم كهذا يجب أن يكون واحداً. يا له من أمر مضحك عندما يتقدم العشرات في طريق معينة وكل منهم يريد أن يكون هارياً بكل ككبكية ودبدبة وتعبس ولهجة متكلفة وأبهة ووقار. بمثل هذه الصفات يريد أن يكون هادياً لكل من هو تائه ومتحمس لإيجاد الطريق والوصول إلى منزل أو غاية وقلبه متلهف لرؤية بيته ومدينته وأهله وأرحامه. يريد أن يعلمه كيفية «الرحيل» وأن يحكي له عن منازل المستقبل وعن الخُر والوديان والمنعطفات والروابي والفلل والمخابئ والقفار والمستنقعات والأماكن التي ينتهي فيها الطريق والأماكن التي يجب التراجع والسير مشياً على الأقدام والأماكن التي لا يمكن فيها السير حتى مشياً. كم هو مضحك هذا الأمر.

على أية حال فقد بدأ الدرس! بكل بساطة. المعلم. لا. الخضر نفسه لا. ذلك المُقني العجوز في أعماق القناة المظلمة اليابسة. صاح منادياً أصحابه وعلمهم بفأسه كيف ينقرون القناة. كانت الفؤوس تقارع التكلسات المتصخرة المتجمدة في القناة بإيقاع جميل متناسق. خالفة أعمق وأجمل السمفونيات. كانت الصخور تقاوم بشدة وشراسة. لكن تنقير الفؤوس الصامدة التي لا تعرف التعب والملل خلف فأس إمامها القوي الماهر المقنن الذي كان سيف بيريكليس يبدو أمامه كسكين فواكه أو مقراض أظافر الأطفال. كانت تهوي على رأس الخصم بجهد متواصل جسور وبإيمان مفعم باليقين. كان الجهاد الأكبر بعينه! كان أول جهاد أخوضه في حياته.

كنت أراقب عمل الفؤوس الجبارة بنظرات متفحصة ولهي. متحمساً لمشاهدة نهاية العمل. الجهاد في الظلام! التعليم في مجرى القناة! الاجتهاد للحصول على الماء. الكفاح مع التراب. «الهبوط من أجل الصعود». السفر إلى أعماق الأرض للارتواء. البحث عن الماء في أعماق الأرض لا في السماء ماء البنبوع وليس ماء المطر. وأخيراً تعلم درس أمضى الإسكندر حياته كلها من أجله ولكن لم يتعلمه؛ أثر من أرض بعيدة مفقودة «ضائعة» ينتظر فيها الخضر مجيء امرئ عطشان؛ كم من مُجد وكم من ظمان

على مدى تاريخ البشر الطويل وعلى قارعة الطرق في المتاهات قضى نحبه في هجير الصحارى وعلى الرمال الملتهبة. وكمن امرئ هلك على مقربة من حدود هذه الأرض وبعد طي الطرقات والجبال والقفار ومات ظمآن مكتوباً بالحسرات؛ لأنه لم يعرف الطرق والمنازل ولم يعلمه أحد بأنه من «أين» ينبغي السير إلى «هناك»؛ إذ إن هذا السفر لا يتيسر فقط بالجهد ولا بتجشيم عنائه وبالصبر عليه. ولا يصل إلى شيء. بل إن الأمر يتطلب المعرفة والتعلم والفهم لحظة بلحظة فهما أجد وأعمق وأسمى وأدق وأصعب... الدروس التي سكت التلميذ من فرط الجلال والحيرة والهول.

كنت واقفاً صامتاً متفحصاً وخائفاً قليلاً من ذلك الظلام العظيم الزاهي! ومن ذلك المكان الشامخ الذي كأنه عالم آخر. وقد كان أمامي نفقاً يابس. حيث مئة وسبعون متراً تحت الأرض وعلى بعد آلاف الأمتار يرتفع هذا النفق إلى سطح الأرض فاتحاً فاه أمام الشمس. ولكنه كان بعيد جداً. لا. بل أنا كنت بعيداً جداً حتى كنت «أعلم» فقط بأن في النهاية سيلتحق هذا الظلام الدامس الطويل بذلك الضوء العظيم. ولكن لم أكن «أرى». كنت أعلم ولكن لا أشعر؛ كنت متيقناً ولكن لا ألمس. من هنا يصبح الإنسان بعد اليقين وبعد علم اليقين متشوقاً للإحساس. معانياً من ألم لهفة المشاهدة ومتلهفٌ للسمع. يبدو أن القلب والروح عندما يرتويان. تبقى العين والأذن ويبقى الجلد والشم والذوق ظماء. إنهم يرتون بطريقة أخرى.

لذلك فإن موسى المبعوث من الله وكليمه وأمين وحيه. يئن في الطور عجزاً وتشوقاً ويتضرع إلى الله ملتئماً منه بأن «هلا تريني وجهك؟» ومحمد. حبيب الله. وآخر مبعوث عظيم وخازن أسرار الله ومهبط وحيه؛ يعترزم سفر المعراج ليبحث عنه ويمر في السماوات ومن أجل «الحضور» يُخلف «سدرة المنتهى» ويخلق عالماً متجاوزاً الحدود التي يحترق بعدها جناح جبرائيل. لأن «اليقين» لا يرويه. إنه يطلب الحضور كي يخدم فيه نار الاشتياق.

كنت واقفاً أمام هذا الأستاذ العالم المليء بالأسرار والرموز الذي كان يؤهني مهامه الغيبية في ذلك الصّف المرموز المشابه لحياتنا على سطح الأرض. في تلك المدرسة المناظرة لمصير الإنسان. كنت واقفاً معطياً له سمعي وبصري وفؤادي وإن روعي الغارقة في الفهم كانت ترتعش من هذا الموقف. كنت أشعر بأن ينابيع من الأفهام المبهرة أخذت تنفجر في داخلي وأن مياه البصائر العذبة الباردة والمعارف المليئة بالألغاز ستفور في وتسيل. وبهذا سيعم في أرضي الجرداء المحروقة بساتين من أذ الثمار. وغابات من أبهج الأشجار. وحدائق من أجمل الزهور العطرة والخمائل النضرة. وأوسع الأحياء عمارة. وستفتح أبهج البراعم والورود. إنني الآن لا أعلم شيئاً عن مدى فهمي في ذلك الموقف؛ كيف كنت أستوعب عمق تلك الدروس والمشاعر. والى أي مدى كانت هذه الأفكار والمشاعر تضیی عقلي وقلبي. لا أعرف ماذا كانت تعني كلمات الأستاذ تلك لدى هذا الطفل الفضولي وقليل الفهم الذي كان يفترض أن يكون نبياً ولكن لم يكن كذلك. " لا أعرف ما كانت تعني تلك الكلمات التي كانت تتحدث معي بلغة الفأس المعجز وبتنقيح هذا القلم السحري الخيالي الماورائي. كانت تنقش على هذه الأوراق المتحجرة في جدران هذه القناة اليابسة. كانت تنقش أسطراً خالدة لدروس إلهية عن حياة الإنسان المعنوية. ولكنني الآن متيقن بأنني في ذلك الحين كنت أشعر في ذلك الدرس المدهش عند ذلك الأستاذ الكبير. كنت أشعر بعظمة الدرس والأستاذ معاً. كنت أشعر بمضي لحظات عظيمة وألمس وأجل عظمة هذا الدرس وجلاله وعمقه وجذبه بكل كياني.

كنت غارقاً في نشوة تلك اللحظات وبهائنها ومتلهفاً من الانتظار ومندهشاً من الأستاذ وإعجاز الفؤوس وجمالية العمل والجهد في ذلك الظلام. وشاعراً ببسالة السفر في أعماق الأرض" وبالمعنى الجليل للبحث عن الماء؛ وبقداسة التنقيب في أعماق الظلام. بعيداً عن الأرض والحياة. من أجل فتح نوافذ المياه المنغلقة. بينما كنت غارقاً في كل تلك الأجواء شعرت فجأةً بمسحة لطيفة باردة بين أصابع قدمي الحافيتين. ارتفعت الأصوات شيئاً فشيئاً من كل جانب وانتشرت حتى بدت غاضبة. مقتحمة كل المكان؛ الماء! فتحت العيون. وفار الماء وتكسرت الأمكنة المتحجرة...

الماء. هذه الروح السائلة. روح الأمل والحياة. رمى نفسه سريعاً في مجرى القناة بكل صلابة. زلالاً قواً وبأقدام راسخة مؤملاً. وأثناء ازدهار الأمنيات الخضر العطرة في خياله. مر على البساتين النضرة مسرعاً. كي يوصل نفسه إلى فم القناة اليابس المفتوح تحت لهيب الشمس وكي يقر عيون الحقول المغيرة والمزارع المحروقة والنضرات الذابلة لآلاف الأشجار الضمآنة الواقفة على نار الانتظار. وكي يجري في عروق جداول المزارع اليابسة والبساتين الميتة.

في العام التالي لما عدت إلى قرية مؤمن آباد. رأيت الأشجار قد اخضرت في بساتين الصحراء البهيجة على بساط من الخمائل الزمردية والحقول المرتوية. رأيت أيادي الأغصان ترتجف من شوق الشكر والحمد؛ مرتفعة إلى السماء؛ تدعو لسلامة أستاذي العجوز ولضربات فأسه الذي جلب لها الرحمة والأطفال الفرحين يمرحون بين الزهور والحشائش. والشباب المفعمين بالأمل والأقوياء يؤمنون على مناجاة الأشجار. ندية أعينهم وجفونهم وأصابعهم الطاهرة من دموع الفرح ومسرة الشكر. مرددين تلك المناجاة في أذن النسيم الممرح المسرور الذي كان يداعب أحضانهم.

وأنا كصديق عجوز للأشجرة الذي يتذكر أيام ولادة الأبناء وأيام طفولتهم ويروي لهم حكايات عن ليلة زفاف والديهم وصباح يوم

ولادتهم. بغرور ورعاية أبوية لطيفة. كنت أشاهد البستان والصحراء وأنظر الأشجار وفصائل القطن والذرة وسيقان الحنطة والشعير المرتوية النضرة؛ كأنني أعرف كلاً منها منذ زمن بعيد وصديق لها وقريبها. رغم أنني كنت لا أزال طفلاً. فقد وجدت نفسي لأول مرة قد كبرت في مكان بهذه السعة وبين كل تلك النفوس وبهذا عشت عمراً طويلاً في سنة واحدة. كنت عائداً من الصحراء والنسيم كأم حنونة فاهمة تعلم أبناءها الحقوق والأدب. أحنى أغصان الشجر والشجيرات الصغيرة وسيقان الحنطة والشعير الفتية احتراماً لي ولتوديعي وأنا في منتهى نقطة الصحراء. حيث لا تلوح لي بعد أشباحهم الغامضة. أدت رأسي مرة أخرى. ملوحاً بيدي بكل وقار وإجلال ومفعماً بالنجاح واللذة والغرور والحنان. مجيباً تحية هذا النبات البريء. متفاعلاً مع مشاعره الصامتة المفعمة بالبراءة والنقاء.

الحياة الصحراء

DESERT LIFE

الصحراء هي منطقة قاحلة حيث المطر قليل جداً، وبالتالي فظروف الطقس معادية " للحياة النباتية والحيوانية. وإن انعدام الغطاء النباتي في الصحراء يعرض سطحها لعمليات التعرية. حوالي ثلث سطح اليابسة في العالم قاحل أو شبه قاحل، وهذا يشمل الكثير من المناطق القطبية حيث هطول الأمطار قليل، وتسمى هذه المناطق القطبية بـ«الصحاري القطبية». تصنف الصحاري حسب كمية الأمطار التي تسقط، أو درجة الحرارة التي تسود، أو أسباب التصحر أو الموقع الجغرافي

المؤلفين

احمد علي حسين | ريان أبو بكر
فرحان سلطان | محمد مصطفى